

مشارق الآي



عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

مشارق الأنوار



عبد اللطيف بن عبد الله التويجري

ح شركة افاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التويجري، عبد اللطيف بن عبد الله

مَشَارِقُ الآي. / عبداللطيف بن عبدالله التويجري. - الرياض، ١٤٤١هـ

ص ١٦٠؛ ١٤×٢٠ سم

ردمك: ٥-٥-٩١٤١٦-٦٠٣-٩٧٨

١- الوعظ والإرشاد

٢ - القرآن الكريم

أ. العنوان

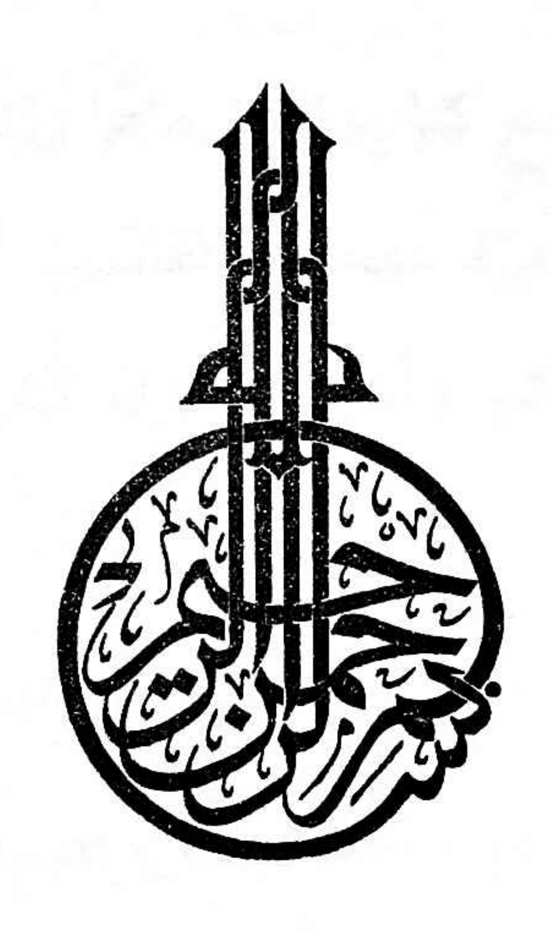
ديوي ٣١٣ ١٤٤١/٨٠٦٠

رقم الإيداع: ١٤٤١/٨٠٦٠

ردمك: ٥-٥-٩١٤١٦-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م



إهداء

تعيشُ مع كتاب الله سماعًا وتتمنىٰ أنها تعرف القراءة، رأتني مرَّة مهمومًا فقالت: لا أدري كيف تضيق صدوركم وأنتم تعرفون القراءة من **المصحف**؟!

إلىٰ الوالدة الغالية:

حصة بنت إبراهيم التويجري

حفظها الله تعالىٰ

أُهديها هذا الكتاب

سائلًا الله ﷻ القبول والسداد

١٤٤١هـ

فهرس المحتويات

مطلعُ المشارق

الحمدُ لله حمدًا كثيرًا طيّبًا، حمدًا يملأ السما، بأقطارها والأرض والبر والبحرا، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد:

فإنَّ في مشارق الشمس آيات باهرة، زخرفت الكون جمالًا وجلالًا، وازدانت حُسنًا وبهاءً، هي الشمس في كبدِ السماء تُشرق فيعم سناها الكون ضياءً ونورًا، وبهجةً وسرورًا.

إنَّه مظهرٌ عظيمٌ من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الربانية، يتجلىٰ في الخَلق العظيم لهذه الشمس: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج: ٤٠] والعظيمُ لا يُقسم إلا بعظيم!

تلك هي الشمس حين تُشرق علىٰ الكون بشعاعها ونورها وجمالها، غيرَ أن هناك شمسًا أخرىٰ.. إشراقُها حياة، ونورُها بهاء، وشُعاعها أُنس.

ألا ما أجملَ «شمس القرآن» إذا أشرقت في قلب المؤمن، وخالجت أنفاس روحه، فالقلب يطير، والروح تُحلِّق، والنفس تسمو، وحق لمثل هذا الشروق أن يُفرح به ويُستبشر: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

جاء عن مجاهد [ت: ١٠٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أنه قال: (فضل الله: الإسلام، ورحمتُه: القرآن)[1]، و«إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبُك به!»[2].

فما أعظمَ فرح العبد بهاتين النعمتين: نعمة الفرح بالإسلام، ونعمة الفرح بالقرآن، والمدار علىٰ الأخيرة؛ فهي المثبِّتة للأولىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢﴾ [الفرقان: ٣٢].

إنَّ أعظمَ المخلوقات صلابة وقسوة هي الجبال الشامخة، ومع هذه القوة والصلابة لا تقوىٰ علىٰ حجب شروق آي القرآن في جنباتها= فتتصدع جوانبها من خشية الله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ [الحشر: ٢١] فكيف إذن حالها مع هذا الجرم الصغير الذي في داخل الإنسان إذا أشرقت؟!

---

(١) تفسير الماوردي (٢/ ٤٤٠).

(٢) تفسير الطبري (١/ ٨٥).

حين تشرقُ الآيات في قلب المؤمن فإنها تشع علىٰ الجوارح خُلقًا وعملًا، فيكون قوله نورًا، وعمله نورًا، وحياته نورًا.

حين تشرقُ الآيات في قلب المؤمن فإنَّ الجوارح لا تبطش، والعقول لا تطيش، والنفس لا تجزع؛ لأنها آمنة مطمئنة في ظلال مواعظِ القرآن، وشفاء الصدور.

حين تشرقُ الآيات في قلب المؤمن فإنه لا يتعلق إلا بالله، ولا يخشىٰ إلا الله، ولا يرجو إلا الله؛ لأن محياه ومماته لله رب العالمين، لا شريك له.

حين تشرقُ الآيات في قلب المؤمن فإن روح العبد تسمو وترتفع في سلالم اليقين، ومعارج الإيمان، وتصبح تلك النفس المطمئنة الراضية المرضية.

وبعدُ أيها المبارك! فميدان هذه المشارق فسيح، وشمسها مضيئة، وأثرها مُبارك، ولكن أين أصحابُ القلوبِ الطاهرة والأذهانِ النقية، المتدبرون المتذكرون، الذين ذكرهم الله ﷻ بقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: ٢٩].

من هذه المداخل وغيرها جاءت فكرة هذا الكتاب: «**مشارقُ الآي**» في دعوةِ الأمة بمجموعها للعيش مع كتاب ربها، والنهل من معينه، والتدبر في معانيه؛ فهو الذي يُطلعهم علىٰ معالم الخير والشر،

ويجعلُ في أيديهم مفاتيح كنوز السعادة، ويُثبِّت الإيمان في قلوبهم، ويعطيهم قوةً وانشراحًا، وبهجةً وسرورًا.

«مشارقُ الآي» مقالات متنوعة في النفس والكون، والفكر والحياة، مرصوفة بعباراتِ الأولياء، والسادةِ النجباء، اجتمعت تُذكِّرُ وتقول: لا ظلام مع نور الوحي!

«تُـذَكِّـرُنِي المَـشَـارِقُ كُـلَّ يَـوْمٍ
بِـأَنَّ اللهَ لَا يُبْقِي ظَـلامَـا»!

اللهمَّ تقبله واجعله خالصًا لوجهك الكريم، وانفع به كاتبه وجامعه وقارئه وناشره، واجعلنا وإياهم جميعًا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك. اللهم آمين.

وكتب

عَبْدُ ٱللَّطِيفِ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ ٱلتُّوَيْجِرِي

الرياض

غرة رجب من عام ١٤٤١هـ

a44t@hotmail.com

تقاربُ القلوب

«قرابة الرَّحم تُقطع، ومنَّة النِّعمة تُكْفَر، ولم نرَ مثل تقارب القلوب، يقول الله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] وذلك موجودٌ في الشِّعر:

وَلَقَدْ صَحِبْتُ النَّاسَ ثُمَّ سَبَرْتُهُم
وَبَلَوْتُ مَا وَصَلُوا مِنَ الأَسْبَاب
فَـإِذَا القَرَابَةُ لَا تُقَرِّبُ قَاطِعًا
وَإِذَا المَوَدَّةُ أَقْرَبُ الأَنْسَاب»[1]

لم يكن تُرجمان القرآن وحبر الأمة ابنِ عباس رضي الله عنهما يقول ذلك إلا لأن تقارب القلوب يتوه الفكر في كُنهه، ويحار العقل في تسبيبه، فهو وشيجة تتجاوز مسافات التاريخ، ورابطة تتجاوز حدود البلدان.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١/ ٣٣٥) وعلّق عليه قائلاً: (هكذا وجدته موصولًا بقول ابن عباس، ولا أدري قوله: (وذلك موجودٌ في الشعر)، من قوله أو من قول من مرَّ من هؤلاء الرواة).

روىٰ أبو الشيخ [ت: ٣٦٩] عن الأوزاعي [ت: ١٥٧] قال: كتب إليَّ قتادة [ت: ١١٧]: **(إن يكن الدهر فرّق بيننا، فإن أُلْفَة الله الذي ألف بين المسلمين: قريب)**(١).

في تقارب القلوب يتجلىٰ عجيب قدرة الله تعالىٰ، إذ يصير بموجبها الأخ بمثابة النفس: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور: ١٢](٢) ويصير بعقدها الإيثار شعارًا: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وإذا حلَّ الإيثار في مجتمع تقارب بعيده، وتدانىٰ نائيه، وتواصل أهله، وعم السلام، فتقارب القلوب مفتاح طهارتها، ورسول نقائها، وكذا كان مجتمع المدينة في عهد رسول الله ﷺ، فهو البرهان الجلي، والدليل البين.

في تقارب القلوب: ازدهار الأخلاق ونماء القيم وزيادة الإيمان: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٣)، وكيف يتأتىٰ حب الخير ما لم تتقارب القلوب؟! أم كيف يشيع الكرم والبذل والمواساة ما لم تتصافَ النفوس؟!

---

(١) الدر المنثور للسيوطي (٤/ ١٠١).
(٢) ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي: بإخوانهم. ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ٢١١).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم الحديث (١٣)، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل علىٰ أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه، رقم الحديث (٤٥).

تقارب القلوب: امتزاج بين الأرواح وعناق بين الأفئدة، لا مقام فيها للمظاهر، ولا محل فيها للشكليات، وتصبح كلمة الفصل فيها: «**حب لأخيك مثل ما تحب لنفسك**».

إنه بوتقة إعجازية تذوب فيها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية.

تقارب القلوب: نعمة امتن الله بها علىٰ الصحب الكرام، فقال تعالىٰ ممتنًّا بها عليهم: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وللعقل أن يسيحَ فكره في التفكر في هذه الآية متأملًا اقتران تآلف القلوب بأعظم نعمة، وهي الإيمان بالله تعالىٰ، ففي سباق الآيات امتنان رباني بنعمة الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢] ذلك أنهما أعظم ركيزتين في بناء المجتمع الإسلامي، بل أعظم ركيزة لقيام دولة الإسلام الأولىٰ التي كانت العافية للدنيا، والشمس للبشرية.

وتلك المؤاخاة التي استهل بها ﷺ أعماله في دار الهجرة منبع كل أخوة في الإسلام في سائر الأعصار والأمصار كما يقول ابن عطية [ت: ٥٤٢]: (وكل تألُّف في الله فتابع لذلك التألف الكائن في صدر الإسلام)[1].

---

(١) تفسير ابن عطية (٢/ ٥٤٨-٥٤٩).

تقريب القلوب من أعظم مهمات محبي الخير للناس، ولهذا كانت في باكورة الأعمال النبوية في تأسيس الدولة، فهي من عمل الرواد ووظيفة القادة، فالحديث عنه ليس ترفًا بل ضرورة، تقتضيه مصلحة الأمة، وتحتِّمه مصلحة الفرد، ويوجبه النصح للجميع.

ومفتاح تقارب القلوب: «الدين الحق»، وسره الأوحد: «حسن العلاقة بالله تعالىٰ»، فحين تحسُن علاقتنا بالله يُحسِّن الله علاقتنا مع الناس، وما عداه من تقارب فسراب يحسبه الظمآن ماءً، يتبدد عند أدنىٰ معضلة، ويتلاشىٰ عند أول ابتلاء، ثم في الآخرة ينقلب حسرة وندامة: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

أسند الطبري [ت: ٣١٠] في تفسيره إلىٰ عَبْدَة بن أبي لُبَابة [ت: ١٢٧] رَحِمَهُ اللَّهُ عن مجاهد [ت: ١٠٢] ولقيه وأخذ بيديه فقال: **(إذا تَراءىٰ المتحابَّان في الله، فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحِك إليه، تحاتَّت** [تساقطت] **خطاياهما كما يَتحاتُّ ورق الشجر. قال عَبْدَةُ: فقلت له: إن هذا ليسير، قال: لا تقُل ذلك، فإن الله يقول:** ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣] **قال عبدة: فعرفتُ أنه أفقهُ مني)**[1].

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٢٥٨).

وإنما كان هذا الفقه منه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ لمعرفته بشأن الجاهلية إذ كان فيهم من الضغينة والتهالك علىٰ الانتقام ما يكاد لا يأتلف منهم قلبان؛ ولهذا لم تقُم للعرب دول ذات سيادة قبل الإسلام[1].

إنَّه فقه حقائق النفوس ومعادن القلوب، وذاك حقيق بأن يسمَّىٰ فقهًا، ذلكم الفقه الذي يرتقي بالنفوس إلىٰ التقارب والمحبة والهدىٰ والصلاح، الفقه الذي يجمع ولا يُفرق، ويعذر ولا يؤلب، ويسعىٰ جاهدًا في نشر التسامح والتناصح والتقارب بين أهله وأفراد مجتمعه.

إنَّ تقارب القلوب من غايات التشريع الإسلامي، يرمقه المتأمل في قول الإمام: (استووا لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)، فهذا الاستواء وتقارب الأبدان في الصلوات في مساجدنا إيماء إلىٰ طلب تقارب القلوب في حياتنا كلِّها، وهي تنبيه تشريعي إلىٰ البُعد عن الشقاق والخروج من الملة، أعاذنا الله وإياك من الهوىٰ والعصيان.



---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري (٢/ ٢٣٣-٢٣٤)، تفسير البيضاوي (٣/ ٦٥).

القرآن والتربية على الذوق

روىٰ السخاوي [ت: ٩٠٢] عن المزَني [تلميذ الشافعي] قال: (سمعني الشافعي [ت: ٢٠٤] يومًا وأنا أقول: فلان كذّاب، فقال لي: يا أبا إبراهيم، اكْسُ ألفاظَك أحْسَنَها، لا تقُل: فلان كذّاب، ولكن قُل: حديثه ليس بشيء)[1].

ما أعظمه من تعليم، يتدثر بالأدب، ويتحلّىٰ بالخُلُق، وهكذا فليكن المعلمون، وحسبُك بالشافعي معلمًا ومربيًا.

(اكْسُ ألفاظَك أحْسَنَها) توجيه تربوي يحلّق بالفكر إلىٰ عادات القرآن التي استنبطها السلف رحمهم الله من أفياء آياته، كما في الأثر الذي أسنده الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ مجاهد [ت: ١٠٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] قال: (**وأسْتَاهِهِم! ولكن الله كريم يكني**)[2].

---

(١) فتح المغيث، السخاوي (٢/ ١٢٨).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٢٣٠).

واستقراء القرآن الكريم هو من منهجية السلف في التدبر، وربما أسماها بعض المتأخرين بعادات القرآن، قال الزركشي [ت: ٧٩٤]: (من عادة القرآن العظيم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والرفث والدخول والنكاح ونحوهن...)[١].

ويقول الشاطبي [ت: ٧٩٠]: (أتىٰ فيه [القرآن] الكناية في الأمور التي يُستحيىٰ من التصريح بها... فاستقر ذلك أدبًا لنا استنبطناه من هذه المواضع، وإنما دلالتها علىٰ هذه المعاني بحكم التبع لا بالأصل)[٢].

وهذا الاستقراء لا يتحصل إلا ببذل الجهد في فهم القرآن، والعيش في رحابه، وفي هذه الهداية يريدُ رَحِمَهُ اللَّهُ وضع الأمة علىٰ تربية القرآن علىٰ طيب الكلام وانتقاء الكلم، لا سيما عند الحديث عما يُستحيَىٰ منه، «فكل كلمات القرآن بلا استثناء هي أعلىٰ الألفاظ وأرفع الأساليب، فلا نجد في القرآن كلمة لا تليق، ولا كلمة تخدش الحياء، ولا نرىٰ عبارة لا تتسم بالأدب»[٣].

وحريٌّ بالمؤمن أن تكون عادات القرآن له مدرسةً وخُلقًا ونبراسَ حياة، متأسيًا في هذا بنبينا محمد ﷺ الذي كان خلقه القرآن كما في وصف عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٢/ ٣٠٣-٣٠٤).
(٢) الموافقات، الشاطبي (٢/ ١٦٥).
(٣) عادات القرآن الأسلوبية، حمود الثنيان (١/ ١٦٨).

إنَّ هذه العادة القرآنية النبيلة ارتقاءٌ بألسنة المؤمنين وطهارة لألفاظهم؛ لأنها عنوان الشخصية المسلمة، وبرهان الحضارة، وأمارة العقل، وبهاء الخُلق.

وهنا نجدُ السَّبْق القرآني للعناية بما يسمىٰ بالذوق قبل أن يعرفه الغرب والفلاسفة، وإذا كان الذوق في الغرب حصرًا في مجتمعاتهم علىٰ الطبقات العليا؛ فإنَّ تربيةَ القرآن علىٰ الذوق كانت لكل الأمة بلا نظر لطبقة ونحوها من الفوارق، ومن هنا نفهم عناية الشافعي [ت: ٢٠٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتربية تلميذه علىٰ أناقة الكلمة، وجمال المنطق.

ومن المعلوم أن الإمامَ البخاري [ت: ٢٥٦] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كان إمامًا في الجرح والتعديل، وكانت عباراته تقطر أدبًا كما شهد بذلك ابن حجر [ت: ٨٥٢] فقال عنه: (وللبخاري في كلامه علىٰ الرجال تَوَقٍّ زائد، وتحرٍّ بليغ يظهر لمن تأمل كلامه في الجرح والتعديل، فإن أكثر ما يقول: «سكتوا عنه»، «فيه نظر»، «تركوه» ونحو هذا، وقلَّ أن يقول: «كذاب»، أو: «وضَّاع»، وإنما يقول: «كذَّبه فلان»، «رماه فلان»، يعني: بالكذب)[1].

---

(١) فتح الباري (١/ ٤٨٠).

فأنتَ إذا تأملت في أحوالهم وجدت أن الكلمةَ الأنيقة كانت جسرًا ذوقيًا وخُلقًا رفيعًا امتد إلىٰ مجالس العلماء والسلف من ميراث النبوة، فحيثُ حضر العلم حضر الأدب، وحضرت الكلمة النبيلة والمنطق الرشيد.

يُحكىٰ أن من ذكاء الخليفة المأمون [ت: ٢١٨] في صغره حسن منطقه، وقد كان والده هارون الرشيد [ت: ١٩٣] يميل إليه ويقدمه علىٰ ابنه الأمين فتلومه زوجه زبيدة [ت: ٢١٦] في ذلك، فقال لها علىٰ سبيل الاعتذار: سأبيِّن لك مِنْ حالهما ما تعذريني به، فاستدعىٰ الأمين وكانت عنده مساويك، فقال له: ما هذه يا محمد؟ قال: مساويك، فقال: اذهب، ثم استدعىٰ المأمون وقال له: ما هذه يا عبدالله؟ فقال: ضد محاسنك يا أمير المؤمنين، ويُروىٰ أنه قال له: مساوئ أعدائك يا أمير المؤمنين، وزبيدة تسمع كل ذلك، فقبلت عذره[١].

والمتأمل في المجتمع الإسلامي من حيث عمومه يجد أنه تَطَعَّم بتهذيب الأخلاق وحسن المنطق فارتقىٰ الذوق العام، فصار حسن الكلمة ركنًا مهمًّا في حضارته وخير من يعبر عن هذا: الشاعر المتنبي [ت: ٣٥٤] حين قال:

---

(١) ينظر: قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، الحضرمي (٢/ ٤٢٩).

لا خَيْلَ عِندَكَ تُهْدِيهَا وَلا مالُ

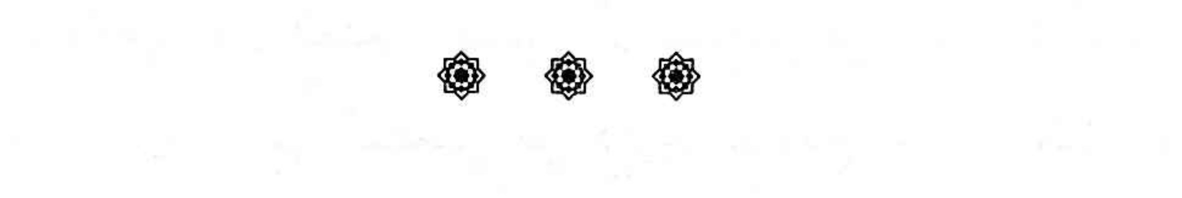
فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لم تُسعِدِ الحالُ!

وفي تحرير جامع وتنبيه لطيف لما سبق قوله في أول المقالة يقول النووي [ت: ٦٧٦] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومما يُنهىٰ عنه: الفحشُ وبذاءةُ اللسان... وينبغي أن يستعملَ في ذلك الكنايات، ويعبَّر عنها بعبارة جميلة يُفهم بها الغرضُ، وبهذا جاءَ القرآن العزيز والسنة الصحيحة المكرَّمة... قال العلماء: فينبغي أن يستعملَ في هذا وما أشبهَه من العبارات التي يُستحيىٰ من ذكرها بصريح اسمها الكنايات المفهمة... وكذلك ذكرُ العيوب كالبرص والبَخَر والصُّنان وغيرها، يعبَّر عنها بعبارات جميلة يُفهم منها الغرض، ويُلحق بما ذكرناه من الأمثلة ما سواه.

واعلم أن هذا كلَّه إذا لم تدعُ حاجةٌ إلىٰ التصريح بصريح اسمه، فإن دعتْ حاجةٌ لغرض البيان والتعليم، وخِيفَ أن المخاطَب لا يفهم المجازَ، أو يفهمُ غيرَ المراد، صرَّح حينئذ باسمه الصريح ليحصلَ الإفهامُ الحقيقي، وعلىٰ هذا يحمل ما جاء في الأحاديث من التصريح بمثل هذا)[1].

(١) الأذكار، النووي (ص٣٧٥-٣٧٦).

فيا أيها اللبيب: احرص دائمًا علىٰ نقاء كلمتك وطيب عبارتك، واكسها بالحسن واللطف، فإنك بذلك ترتقي ومن القرآن تستقي، وتذكر أن في الجنة: «**غُرفًا ترىٰ ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها**»، وذلك «**لمن أطاب الكلام**، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلىٰ بالليل والناس نيام»(١).



(١) أخرجه الترمذي مرفوعًا من حديث علي بن أبي طالب ﷺ، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في قول المعروف، رقم الحديث (١٩٨٤)، والإمام أحمد في مسنده، مسند الخلفاء الراشدين، مسند علي بن أبي طالب، رقم الحديث (١٣٣٨)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٣٨٨).

لن يغلب عسرٌ يُسْرَينِ

تعصفُ الشدائد بالأمم كما تعصف بالأفراد، فحياة الأمم هي نسخة مكبرة من حياة الأفراد، لكنَّ نوائبَ الأمم أشدُّ وأعظم؛ ولهذا يحارُ الفكر في معضلاته فيحتاج إلىٰ هدىً ونور، ودلالة وإرشاد.

روىٰ الإمام الطبري [ت: ٣١٠] في تفسيره عن أبي عبيدة بن الجراح ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] أنه كتب إلىٰ عمرَ بن الخطاب، فذكَر له جموعًا من الروم وما يَتخوَّفُ منهم، فكتب إليه عمر: أمَّا بعد، فإنه مهما نزَل بعبدٍ مؤمنٍ من منزلةِ شدة، يجعَلُ الله بعدها فرجًا، وإنه لن يَغْلِبَ عسرٌ يُسْرَين، وإن الله تبارك وتعالىٰ يقول في كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠])[1].

إننا نقرأ في هذه الإجابة العمرية المختصرة حياة عمر مع القرآن، حياة عمر مع مشارق الآي وهداياتها، فلا نجد اضطرابًا مع الشدة،

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٣٣٤).

ولا خنوعًا أمام الخلق، ولا طلبًا للهدنة، وهكذا تأثير القرآن في صاحبه؛ فثمرة الحياة مع القرآن في الرخاء يجنيه صاحبه في الشِّدة ثباتًا وسكينة وطمأنينة، والقرآن لا يخذُلُ صاحبه أبدًا!

إننا نجدُ في إجابة عمر ﷺ استغناء المؤمن بالقرآن الكريم علىٰ أحد معاني قوله ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ: «**ليس منا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن**»[(١)] أي: يستغني بالقرآن عن غيره كما هو تفسير الإمام سفيان بن عيينة [ت: ١٩٨] رَحِمَهُ اللهُ[(٢)]، وأي استغناء بالقرآن أعظم من الاستغناء به في قرارات الأمة وسياستها؟! والقرآن الذي صنع جيل الصحابة سيصنع أجيال الأمة إن استغنت بالقرآن كما استغنىٰ جيل الصحابة به.

وللاستغناء بالقرآن لا بد من تدبره والعمل به، ولذلك ركنان أساسيان:

الأول: الفهم ويظهر في الأثر من خلال تأويله ﷺ الرباط بالمرابطة في سبيل الله كما عليه جمهور المفسرين[(٣)].

الآخر: العمل وهو في هذا الأثر إرشاده لأبي عبيدة، وجنود المسلمين تبعًا له بالعمل بها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله الله تعالىٰ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾، رقم الحديث (٧٥٢٧).

(٢) ينظر: فتح الباري، ابن حجر (٩/ ٦٨).

(٣) ينظر: تفسير ابن عطية (١/ ٥٥٩)، تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٣).

ومن روائع هذا الأثر وعظاته: فقه تنزيل الآيات علىٰ واقع المسلمين ليتسنىٰ لهم العمل به، وهذا كما هو ركن التدبر فهو غايته العظمىٰ، يقول الحسن البصري [ت: ١١٠] رَحِمَهُ اللَّهُ: (وما تدبرُ آياتِه إلا اتباعُه بعلمِه، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده...)[(١)]، وتنزيل الآيات علىٰ الواقع لا بد له من فقه وتحصيل آلة، فعلىٰ طالب تدبر القرآن طلب هذا الآلة وتحصيل العلوم اللازمة له في تدبر القرآن الكريم.

(مهما نزَل بعبدٍ مؤمنٍ من منزلةِ شدة، يجعَلُ اللهُ بعدها فرجًا) وهذا من براعة الاستهلال، ففيه تهيئة للنفوس وترويض لها علىٰ الصبر، فالتذكير بالفرج مما يهون مرارة الصبر وثقل التكاليف.

(وإنه لن يَغْلِبَ عسرٌ يُسْرَين) لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥-٦] وهذا منزع عمر رضي الله عنه في هذا الشطر من هدايته، ففيها قبس من نور الآيات، وفيها من اليقين بوعد الله ما لا يخفىٰ علىٰ ناظر، ومن جرب الشدائد وعانىٰ الكروب= علم أن هذا اليقين بوعد الله تعالىٰ لا يحصل لكل أحد، فاليقين بالله في الشِّدة هو الفرج بعينه، وباب تحصيل اليقين كما يقول الإمام ابن تيمية [ت: ٧٢٨] هو تدبر القرآن الكريم[(٢)].

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه، كتاب فضائل القرآن، باب تعاهد القرآن (٣/ ٣٦٣).

(٢) ينظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٣٣٠).

إنَّ مِنْ أعظمِ التواصي علىٰ الحق: هو التذكيرُ بالقرآن العظيم كما قال تعالىٰ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥] فما أحرانا بهذا التذكير القرآني لبعضنا بعضًا كنهج هؤلاء الكبار رضوان الله تعالىٰ عليهم.



الشريعة كُلُّها صلاح

شريعةُ الإسلام مصالح من رب الأرباب لعباده كما يقول الشيخ العز بن عبدالسلام [ت: ٦٦٠] رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ[1]، وإلىٰ هذه القاعدة تؤول جميع فروع الشريعة في جميع أبواب الفقه: عبادات ومعاملات، وحدود وجنايات.

وهذه القراءة المقاصدية لأحكام الشريعة مُستقاة من النصوص الشرعية، ومن آثار السلف المبثوثة في دواوين الإسلام، فقد أسند الإمام الطبري [ت: ٣١٠] في تفسيره إلىٰ قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة: ٣٨] قال: **(لا تَرْثُوا لهم أن تُقِيمُوا فيهم الحدود، فإنه والله ما أمرَ اللهُ بأمرٍ قطُّ إلا وهو صلاح، ولا نهىٰ عن أمرٍ قطُّ إلا وهو فساد)**[2].

---

(١) ينظر: قواعد الأحكام، العز بن عبدالسلام (٢/ ١٩٨).

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٤١٠).

لقد كانت الحدود الربانية كحدِّ السرقة -كما في الأثر- أو حدِّ الزاني أو حدِّ الرجم وغيرها مثار شبهات الملحدين والمستشرقين، به ينفذون إلىٰ النفوس؛ تارة بأن هذه الحدود فيها قسوة، وتارة بأنها تصادم الحريات الشخصية، وتارة بأنها مصادمة لمجريات الحياة المعاصرة ومستجداتها.

لقد كانت تلك الشُّبه في أزمان سلفت لا تصل إلا لطائفة محدودة، وصارت اليوم مع الانفتاح التقني الكبير تأتي للمرء في بيته وعزلته! إذ استطاع القوم بث هذه الشبهات في سماء الفضائيات المفتوحة، فصارت الأجيال الصاعدة تتقاذفها أمواج الشبهات في مشهدٍ فوضويٍّ مخيف.

وهنا يأتي دور التحصين الفكري وأهميته، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: ٢٦٠] وإنَّ من أهم أبواب التحصين الفكري: **زيادة اليقين لدىٰ أفراد الأمة.**

وأبواب تحصيل اليقين بيَّنها الإمام ابن تيمية [ت: ٧٢٨] فقال: (بثلاثة أشياء: أحدها: تدبر القرآن، والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق، والثالث: العمل بموجب العلم)[١].

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٣٣٠-٣٣١).

ومِنْ تدبر القرآن الذي يكون به حصول اليقين لدىٰ الأمة: الأثر السالف لقتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ اللَّهُ، إذ قرَّر بجلاء أن في أوامر الله في الحدود صلاحًا للأمة والأفراد، وقرار هذه القاعدة التشريعية في خلد المسلم يورثه اليقين بدينه والثبات عليه والإيمان بشرعه والاعتزاز بهويته.

إنَّ هذه الحدود هي صلاح العباد فهي رحمة بهم، فإنَّ الله إنما أرسل محمدًا رحمة للعالمين وهو سبحانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها، لكن قد تكون الرحمة المطلوبة لا تحصل إلا بنوع من ألم وشدة تلحق بعض النفوس كما ورد في الأثر: (إذا قالوا للمريض اللهم ارحمه، يقول الله: كيف أَرْحمُهُ من شيء به أرحمُهُ!)[1]، فكذلك الحدود هي رحمة للمرتكب وحماية للأمة وسلامة للمجتمع.

فوجه الصلاح في هذه الحدود «لمرتكب الكبائر» أنها كفارة وطهارة له، كما جاء في حديث عبادة بن الصامت ﵁ عند مسلم: قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس، فقال: «**تبايعوني علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، فمن وفىٰ منكم فأجره علىٰ الله، ومن أصاب شيئًا من ذلك**

---

(١) الاستقامة، ابن تيمية (١/ ٤٤٠).

فعوقب به فهو كفارة له، ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلىٰ الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه»[1].

قال النووي [ت: ٦٧٦] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من ارتكب ذنبًا يوجب الحد؛ فحُدَّ سقط عنه الإثم، قال القاضي عياض [ت: ٥٤٤]: قال أكثر العلماء: الحدود كفارة)[2]، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، والعاقل يقدم أخف الضررين علىٰ أعظمهما.

وأما في حق المجتمع والأمة: فهي صمام أمان له كما قال الفقهاء رحمهم الله تعالىٰ: (**وحدود الشرع موانع قبل الوقوع، وزواجر بعده**)[3].

فالعلم بها حاجز من الجريمة خشية الألم، وإيقاعها مانع من العودة إليها، إذ حكمة تشريعها كما قال الزيلعي الحنفي [ت: ٧٤٣]: (الانزجار عما يتضرر به العباد، وصيانة دار الإسلام عن الفساد؛ ولهذا كان حقًّا لله تعالىٰ؛ لأنه شرع لمصلحة تعود إلىٰ كافة الناس)[4].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها، رقم الحديث (١٧٠٩).

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (١١/ ٢٢٤).

(٣) البناية شرح الهداية، العيني (٦/ ٢٥٦).

(٤) تبيين الحقائق (٣/ ١٦٣).

والله تعالىٰ جعل من زواجر الحدود ما يردع به ذا الجهالة حذرًا من ألم العقوبة، وخيفة من نكال الفضيحة؛ ليكون ما حظر من محارمه ممنوعًا، وما أمر به من فروضه متبوعًا، فتكون المصلحة أعمَّ والتكليف أتمَّ، قال الله تعالىٰ ذكره: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] يعني في استنقاذهم من الجهالة، وإرشادهم من الضلالة، وكفِّهم عن المعاصي وبعثهم علىٰ الطاعة(١).

وصدق قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال في الأثر السالف: (فإنه والله ما أمرَ اللهُ بأمرٍ قطُّ إلا وهو صلاح، ولا نهىٰ عن أمرٍ قطُّ إلا وهو فساد).



(١) ينظر: الأحكام السلطانية للماوردي (ص٣٢٥).

صلاحُ القدوات

من ركائز الإصلاح: البداءةُ من أعلىٰ الهرم، فيبدأ بالقدوات، إذ إنَّ في صلاحهم صلاحَ الناس، وإذا فسدوا فالناس تبع لهم، يقول يحيىٰ بن أبي كثير [ت: ١٢٩] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلماء مثل الملح هو صلاح كل شيء، فإذا فسد الملح لم يصلحه شيء[1]، ويقول الإمام سفيان الثوري [ت: ١٦١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ لما سُئِل: أي شيء شر؟ قال: (اللهم غَفْرًا! العلماء إذا فسدوا)[2].

ومما يبين خطر فساد العلماء ما ورد في التحذير من زلة العالم، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل: كيف ذلك؟ قال: يقول العالم شيئًا برأيه ثم يجد من هو أعلم برسول الله ﷺ منه فيترك قوله ذلك ثم يمضي الأتباع)[3].

وإذا كان هذا الخَطب في زلة العالم فإنها أعظم في ترك العلماء لوظائفهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما في الأثر الذي

---

(١) حلية الأولياء، أبو نعيم (٣/ ٦٧).

(٢) حلية الأولياء، أبو نعيم (٧/ ٥).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر (٢/ ٩٨٤).

أسنده الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ الضحاك [ت: ١٠٢] رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [المائدة: ٦٣] قال: **(ما في القرآن آيةٌ أخوف عندي منها، أنَّا لا نَنْهَىٰ!)**[1].

وسرُّ خوف الضحاك [ت: ١٠٢] رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ من الآية كما يظهر والله أعلم هو فقهه للتوبيخ الذي فيها قال القرطبي [ت: ٦٧١]: (فالآية توبيخ للعلماء في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[2]، «وتالله إنهم لأهل لكل توبيخ، ومحل كل تهديد، لأن علماء السوء سبب كل فساد ومنع كل شر وأوصل كل بلاء وفتنة، فأنىٰ يصلح الناس والعلماء فاسدون؟ أم كيف ينزجر الناس والعلماء مرتكبون؟ أم كيف تعظم المعصية في قلوب الجاهلين والعلماء بأفعالهم وأقوالهم يهونونها؟ أم كيف يرغبون في الطاعة والعلماء لا يأتونها؟ أم كيف يقفون عند الحدود والعلماء يتعدونها؟ أم كيف يتركون البدع والعلماء يرونها فلا ينكرونها؟ أم كيف يتورعون عن الشبهات وهي أطيب طيبات العلماء التي يأكلونها؟ بل أنواع الحرام لا يأبونها، وأبواب الورع لا يأتونها»[3].

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٥٥١).

(٢) تفسير القرطبي (٦/ ٢٣٧).

(٣) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين، ابن النحاس (ص٨٥).

وفساد النخبة العلمية يدل علىٰ توغُّل الفساد وتجذره في المجتمعات، فالمعصية مرض الروح، وعلاجها العلم، فإذا وجد العلاج ولم يرتفع الداء، دل علىٰ تجذر المرض واشتداده[1]، والصناعة أعظم من العمل؛ لأنها تحصل بعد تدرب وتروٍّ، وترك الحِسبة أعظم من مواقعة المعصية، فالمعصية يتلذذ بها الإنسان، وليس كذلك الحسبة فكانت أبلغ بالذم[2].

وفي الأثر مقياس العالمية، فبقدر تحرق العالم وقيامه بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر= تكون رفعته عند الله تعالىٰ وبقاء أثره في الناس، وهذا ملحوظ في تراجِم القدوات المؤثرين الذين كانوا أهل تجديد في مسيرةِ الأمة كلِّها، فامتد أثرهم من حلقات العلم إلىٰ ميادين العمل، ومن أروقة المساجد إلىٰ أزقة الشوارع، فكانت دروسهم مشهودة وكتبهم مبثوثة.

وهذه العبارة: (أخوفُ عندي منها) تأخذُ لبَّ المتأمل إلىٰ حياة أولئك الصفوة الكرام مع القرآن، لم يكن قراءتهم له هذًّا، فانتظام مشاعر القلب وفق آيات القرآن لا يتأتىٰ إلا بعد تدبر الآيات وتثويرها والعيش معها[3].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٢/ ٣٩٣).

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي (٢/ ١٣٤).

(٣) قال ابن الأثير في معنىٰ تثوير القرآن: أي: لينقِّر عنه، ويُفكر في معانيه وتفسيره. ينظر: النهاية في غريب الحديث (١/ ٢٢٩)، مادة (ثَوَرَ).

(**أنَّا لا نَنْهَىٰ**) وهذا الجزء من الهداية يُنبئ عن خلق عظيم من أخلاق العلماء، هضم النفس والتواضع والاعتراف بالتقصير في حق الله تعالىٰ، وهذا أول شروق الآيات في قلب العارف أن يقر بتقصيره فلا يزكي نفسه، فيدفعه هذا الاعتراف إلىٰ التوبة إلىٰ الله تعالىٰ والإنابة إليه، فينفك القيد عن قلبه فتشرق فيه مواعظ الآيات، وسير القوم ناطقة بهذا، فكم نالهم من الأذىٰ بسبب قيامهم بالحِسبة علمًا وعملًا؛ وموعظة وتذكيرًا.

كما أن في هذا الجزء من الهداية تعليم المتدبرين تمثل الآيات بمحاسبة النفس وعرضها علىٰ آيات القرآن، فيسأل المسلم نفسه: هل أنا من أهل هذه الآية؟ هل ائتمرت بأمرها؟ هل انتهيت بنهيها؟ وهذا واضح في أثر الضحاك [ت: ١٠٢] في عرض نفسه علىٰ الآية.

والطريق إلىٰ هذه الوظيفة من وظائف العلماء: هو التوكل علىٰ الله، والاتكال علىٰ فضله وإخلاص النية له، يقول الغزالي [ت: ٥٠٥]: (فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... لكونهم اتكلوا علىٰ فضل الله تعالىٰ أن يحرسهم، ورضوا بحكم الله تعالىٰ أن يرزقهم الشهادة، فلما أخلصوا لله النية أثَّر كلامهم في القلوب القاسية)[1].

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي (٢/ ٣٥٧).

ومما يبين خوف الضحاك [ت: ١٠٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآية: أن ترك العلماء لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمارةٌ علىٰ أعظم آفات العلماء وهو الطمع في الدنيا والتعلق بها، وفي هذا روىٰ الإمام الطبري [ت: ٣١٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١] عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أنه كان يكثر تلاوة هذه الآية يقول: بغيًا علىٰ الدنيا، وطلب ملكها وسلطانها، من قبلها والله أوتينا، ما كان علينا من يكون، بعد أن يأخذ فينا كتاب الله وسنة نبيه، ولكنا أوتينا من قبلها)[١].

وهذا الداء الوبيل يجتث العلم من القلب ويذهب برونقه، وقد نصَّ علىٰ ذلك السلف، يقول عمر لكعب: (ما يذهب العلم من قلوب العلماء بعد أن حفظوه ووعوه؟ فقال: يذهبه الطمع وتطلب الحاجات إلىٰ الناس)[٢].

وهو سبب هوان العلماء علىٰ الناس، وصدق ابن عباس رضي الله عنهما حين قال: (لو أن حملة العلم أخذوه بحقه وما ينبغي لأحبهم الله وملائكته والصالحون ولهابهم الناس، ولكن طلبوا به الدنيا فأبغضهم الله وهانوا علىٰ الناس)[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٢٨٣).
(٢) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر (١/ ٦٩٣).
(٣) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر (١/ ٦٥٥).

ولما كان العلماء والدعاة هم أهل الإصلاح في المجتمع، لأنهم في الناس كالنقش من الطين، والظل من العود، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه، ومتىٰ استوىٰ الظل والعود أعوج؟![1]؛ كان إصلاح الناس بإصلاحهم هو المعنىٰ الذي من أجله عنِي القرآن به عناية فائقة، ذلك أن أثرهم في الناس لا ينكر، قال ربيعة بن أبي عبدالرحمن [ت: ١٣٦] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (الناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم، ما نهوهم عنه انتهوا وما أمروهم به ائتمروا)[2]، وهم (كمثل النجوم التي يهتدىٰ بها، والأعلام التي يقتدىٰ بها، فإذا تغيبت تحيروا وإذا تركوها ضلوا)[3].

وتبعًا لعناية القرآن بإصلاح العلماء عني السلف بإصلاح أنفسهم كما في الأثر الذي أسنده الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ أبي الدرداء رضي الله عنه في قوله تعالىٰ: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] قال: (إن مِن أكثرِ ما أنا مخاصَمٌ به غدًا، أن يُقَال: يا أبا الدرداء! قد علِمْت، فماذا عمِلْتَ فيما علِمْتَ؟!)[4].

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين، الغزالي (١/ ٥٨).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبدالبر (٢/ ٩٨٨).

(٣) حلية الأولياء، أبو نعيم (٢/ ٢٨٣).

(٤) تفسير الطبري (٩/ ٣٩٥).

إنَّه يرسمُ السِّر الأكبر للانتفاع بالعمل، وهو العمل بالعلم انتفاعًا ينتفع به المرء نفسه، ثم تنتفع الأمة بعلمه، كما حدَّث ابن الجوزي [ت: ٥٩٧] عن مشايخه فقال: (لقيتُ مشايخ أحوالهم مختلفة، يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعهم لي في صحبته العامل منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه)[١].

بالعلم والعمل ارتفع قدوات ووضع آخرون، وكما أن العمل بالعلم فيه نجاة العالم نفسه فكذلك فيه صلاح الأمة.

إنَّ صلاح القدوات في المجتمع له أثر كبير في أفراده وفي بناء مستقبله، وإذا رأيتَ مجتمعًا صالحًا ناجحًا مُنتجًا فاعلم أن وراءه رجالًا كالسنابل في عطاءٍ يُرون.. وكالشموس منوِّرين. اللهم شُكرًا! القدوات إذا صَلَحوا!



(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي (ص ١٥٨).

وعظ الكبار

أسند الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ عمر بن الخطاب ﵁ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] قال ﵁: (ابغوني رجلًا من كِنانة واجعلوه راعيًا، ولْيَكُنْ مُدْلِجيًا، فأتَوْه به، فقال له عمر: يا فتىٰ ما الحَرَجة؟ قال: الحَرَجة فينا الشجرةُ تكونُ بينَ الأشجارِ التي لا تصل إليها راعية، ولا وَحْشِيَّة، ولا شيء! فقال عمر: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيءٌ من الخير!)[1].

ما كان عمر ﵁ ليقطف هذه الهداية الواعظة: (كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير) إلا بتوفيق الله تعالىٰ، ثم بالبحث عن هدايات هذه الآية ومشارقها وحسن إرشاده وتعليمه للناس، ففي استهلال الأثر تعليم مشوِّق، كما أن في ختامه وعظًا مؤثرًا، وعمر ﵁ ملهم في الوعظ والعلم، كيف لا وقد قال فيه ابن مسعود ﵁: (لقد أحببتُ عمر حبًّا حتىٰ لقد خفت الله، لو أني أعلمُ أن كلبًا يحبه عمر لأحببته، ولوددتُ أني كنتُ خادمًا لعمر حتىٰ أموت، ولقد وجد فقده

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٥٤٤).

كل شيء حتىٰ العِضَاه[1]، إن إسلامه كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن سلطانه كان رحمة)[2].

ويبرز في الأثر ملامح عبقرية عمر ﷺ في التعليم والوعظ، إنه ليس مجرد هداية نثرها عمر بل غلَّفها بتعليم ووعظ بأسلوب مؤثر للحاضرين؛ فكان علمًا وتعليمًا، وهكذا شأن الربانيين الذين يعلمون الكتاب ويدرسونه.

(ابغوني رجلًا من كِنانة واجعلوه راعيًا، ولْيَكُنْ مُدْلِجِيًّا)، هذا الاستهلال المشروط تعليمٌ للأمة في الرجوع إلىٰ أهل الاختصاص، فهؤلاء العرب هم أهل اللُّغة وأهل السليقة وعلىٰ لهجاتهم ولغاتهم نزل القرآن.

ومن ملامح العبقرية في هذا الأثر أن فيه تطبيقًا لأركان التدبر، فالركن الأول هو الفهم السليم للآية من خلال تنقيب عمر ﷺ لمعنىٰ الآية في لغة العرب تعليمًا للأمة ضرورة التنقيب عن مشكل القرآن من مظانه الصحيحة، ثم انتقل للركن الآخر، وهو لازم هذا الفهم لمن أراد الاعتبار والعمل، قال: **(وكذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير)**.

---

(١) العِضَاه: واحدتها عِضَة: كل شجر له شوك يعظم كالطلح والسلم. ينظر: غريب الحديث لإبراهيم الحربي (٣/ ٩٢٦)، مادة (عضه).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٢٤٧).

وهو أسلوبٌ مؤثر للحاضر لهذا المشهد، فحين أعلمهم معنىٰ «الحَرَجَة» واستحضروا حالها= جاءت تلك الرسالة الوعظية للمؤمنين في العناية بطهارة القلب، والتحذير من ضلال القلب؛ فيكون كهذه النبتة حرجًا ضيقًا لا ينتفع بآيات القرآن ولا بمواعظه.

إنك تجد أيها المبارك في هذا الأثر اجتماع أُسس الوعظ السليم:

١- أنه من القرآن الكريم، والقرآنُ كلُّه موعظة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

٢- أنه مبني علىٰ الدراسة والمعرفة وسؤال أهل الاختصاص؛ مصداقًا لقوله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٩﴾ [الفرقان: ٥٩].

٣- أنه اشتمل علىٰ الوعظ بالمثال، وهو أشد ما يكون في الوقع والتأثير، وقد جاء ذلك في أحاديث كثيرة منها حديث أبي موسىٰ الأشعري ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرىٰ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله،**

ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدىٰ الله الذي أرسلت به»[1].

إنَّ في مشهد هذا الأثر رسالة إلىٰ المعلمين والمعلمات والدعاة والداعيات أن يحرصوا علىٰ وعظ القلوب بآيات القرآن الكريم، فإنَّ للقرآن وآياته ومواعظه سطوًا عجيبًا علىٰ الأنفس؛ فإنك لو بحثت عن أفضل القصص أو أفضل الأمثال أو أفضل الأقوال= فلن تجد الأفضلية الكاملة إلا بهذا القرآن العظيم؛ وصدق الله ومن أصدق من الله قيلًا: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ...﴾ [الرعد: ٣١].



---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم، رقم الحديث (٧٩).

القلبُ النقي والصوتُ الخفي

أسند الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ الحسن البصري [ت: ١١٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥] قال: (إن كان الرجلُ لقد جَمَعَ القرآنَ وما يشعُرُ جارُه، وإن كان الرجلُ لقد فَقِهَ الفقهَ الكثيرَ وما يشعُرُ به الناس، وإن كان الرجلُ لَيُصَلِّي الصلاةَ الطويلةَ في بيتِه، وعندَه الزَّوْرُ[1] وما يَشْعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان علىٰ الأرضِ من عملٍ يقْدِرون علىٰ أن يعْمَلوه في السرِّ فيكون علانيةً أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسْمَع لهم صوت، إن كان إلا هَمْسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥] وذلك أن الله ذَكَرَ عبدًا صالحًا ورَضِيَ فعلَه، فقال: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ ﴾ [مريم: ٣][2].

إنها ليست حكايات فحسْب، بل منارات قرآنية ترسم نماذج لامتثال القرآن واقعًا في الحياة، وتدفق الإخلاص في دماء الحياة، فيصبح الإخلاص شعار الحياة وليس مجرد تغريدة أو لقاء ثم يُكدره شغف التصوير والمباهاة.

---

(١) الزَّوْر: الزائرون، ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري (١٣/ ١٦٣)، مادة (زَوْر).
(٢) تفسير الطبري (١٠/ ٢٤٨).

هناك في حلق القرآن والذكر تجد الإخلاص حقًّا.. (إن كان الرجلُ لقد جَمَعَ القرآنَ وما يشعُرُ جارُه)، وفي طلب العلم يحضر الإخلاص: (وإن كان الرجلُ لقد فَقِهَ الفقهَ الكثيرَ وما يشعُرُ به الناس)، وعند الزوار إخلاص: (وإن كان الرجلُ ليُصَلِّي الصلاةَ الطويلةَ في بيتِه، وعندَه الزَّوْر وما يَشْعرون به).

إنها سير قرآنية في ظل هذه الآية، بالرغم من ورودها في الدعاء فقط، لكنه بهاء القياس حين يتحول إلىٰ فقه حياة وليست مسائل علم، والقياس الصحيح هو أحد معالم منهجية السلف في التدبر؛ ذلك أن الشريعة لا تفرق بين المتماثلات، وفي هذا التدبر تقرأ أيها المبارك حفاوتهم بأحوال الأنبياء والصالحين.

وفي هذا الأثر تقريرٌ لأصل عظيم من أصول الشريعة: وهو أن السرَّ فيما لم يفترض من أعمال البر أعظمُ أجرًا من الجهر[1]؛ لأنه أقطعُ لعرق الرياء، ومصالحه علىٰ الفرد عظيمة في بناء الإخلاص وعمق التوكل وإصلاح العلاقة مع الله تعالىٰ.

وعندما يصير الإخلاص منهج حياة، فإنه أعظم دافع للعمل وإصلاح النفس، كما في الحكاية عن عمر بن عبد العزيز [ت: ١٠١] حين تكلم يومًا عند رهط من إخوانه، فصح له منطق وموعظة حسنة،

---

(١) ينظر: تفسير ابن عطية (٢/ ٤١٠)، تفسير أبي حيان (٥/ ٦٨).

فنظر إلىٰ رجل من جلسائه وهو يخذف دمعته فقطع منطقه، فقال له الراوي عنه، وهو ميمون بن مِهْرَان [ت: ١١٧]: يا أمير المؤمنين امضِ! قال: إليك عني فإن في القول فتنة، والفِعال أولىٰ بالمؤمن من القول[١].

فتعلق القلب بالله تعالىٰ حادٍ إلىٰ الدأب في عمل الآخرة، فلا ينصرف من عمل إلا دخل في آخر: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشرح: ٧] لا يقطعه عن الله شيء!

وأمَّا القلب المتعلق بالبشر فيقطعه كل شارد ووارد! وهل أعظم قاطع طريق من الرياء والتماس الشهرة؟! ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

وإذا كانت حوائج الدنيا تقضىٰ بالكتمان، فحوائج الآخرة أحرىٰ بذلك، وإذا كنا نُخفي نعم الدنيا خوفًا عليها من الحُسَّاد؛ فنعم الآخرة من التعبد والإقبال علىٰ الله أولىٰ بذلك، ولكل نعمة حاسد علىٰ قدرها دقت أو جلت، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن أعين الحاسدين[٢].

---

(١) ينظر: شعب الإيمان للبيهقي (٤٩٧٩)، الإخلاص لابن أبي الدنيا (ص٦٩)، ومعنىٰ يخذف دمعته: تسرع دمعته. ينظر: تاج العروس للزبيدي (٢٣/ ١٨٥) مادة (خَذَفَ).

(٢) ينظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (١٥/ ١٨).

ومن إشراقات الإمام ابن تيمية [ت: ٧٢٨] البديعة حول هذا الموضوع قوله رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: (وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله تعالىٰ قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار؛ **ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السرِّ مع الله تعالىٰ ولا يطلع عليه أحد**، والقوم أعظم شيئًا كتمانًا **لأحوالهم مع الله** جَلَّ جَلَالُهُ وما وهب الله من محبته والأنس به وجمعية القلب ولا سيما فعله للمهتدي السالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه - بحيث لا يخشىٰ عليه من العواصف فإنه إذا أبدىٰ حاله مع الله تعالىٰ ليقتدىٰ به ويؤتم به - لم يبالِ! وهذا باب عظيم النفع إنما يعرفه أهلُه)[1].

فالله الله أيها المؤمن وأيتها المؤمنة في مجاهدة النية والحرص علىٰ أعمال السِّر، فإنها عند الله معلومة مسموعة، ولقد صدق الإمام قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: (إن الله يعلم القلب النقي، ويسمع الصوت الخفي)[2].



---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (١٥/ ١٨).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٤٥٣).

غيثُ القلوب

مثلما ينزل الماء علىٰ التربة ينزل الوحي علىٰ القلب، فإن كان القلب أرضًا طيبة استقبل وزكا وفاض بالخير؛ وإن كان خلاف ذلك استغلق وفاض بالشر والضر، وأخرج الشوك والأذىٰ، وأصبحت أرضه نكدة لا نفع فيها.

وتلك معانٍ قرَّرها السلف كما في الأثر الذي أسنده الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ السُّدي [ت: ١٢٧] في قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [الأعراف: ٥٨] قال: (النكد: الشيء القليل الذي لا ينفع، كذلك القلوب لما نزل القرآن، فالقلب المؤمن لما دخله القرآن آمن به، وثبت الإيمان فيه، والقلب الكافر لما دخله القرآن لم يتعلق منه بشيء ينفعه، ولم يثبت فيه من الإيمان شيء إلا ما لا ينفع، كما لم يخرج هذا البلد إلا ما لا ينفع من النبات)[1].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٢٥٩).

فكما يطلب المزارع استصلاح أرضه الحسِّية، فكذلك أراد السدي [ت: ١٢٧] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن يشير في هذا الأثر بأن المؤمن أولىٰ باستصلاح أرضه المعنوية؛ ليثمر قلبه ويشرق بأنوار الوحي.

إنَّ «القلب الطيب إذا نزلت عليه أمطار القرآن: زواجره ونواهيه، ومواعظه وحلاله وحرامه= أثمر ذلك القرآن في ذلك القلب ثمرات أعظم من ثمرات الأرض الطيبة إذا نزل عليها المطر، فأثمر الإيمان بالله تعالىٰ، والتطهر من أدناس المعاصي والكفر، وامتثال أمر الله واجتناب نواهيه.

وكل خَصلة حسنة يثمرها مَطَرُ القرآن في قلب المؤمن؛ كالخشية من الله جَلَّ جَلَالُهُ، والتوبة عند الزلات، والإنابة إليه، والسخاء والشجاعة والرضا بقضاء الله تعالىٰ، والإيثار وعدم الشح، إلىٰ غير ذلك من خصال الإسلام الكريمة الجميلة»[١].

ومناسبة اختيار هذا المثل لقلوب بني آدم؛ لأن بينهم شبهًا وبين الأرض؛ فهي أصلهم وعنصرهم الذي خُلِقُوا منه، فإذا نَزَل المطر من السماء وأصاب أرضًا طيبة أثَّر فيها أثرًا شديدًا فأنبتت الزروع والحبوب والثمار والعشب والكلأ الكثير، وصارت ترفلُ في حُلل زينتها من أنواع النباتات[٢].

---

(١) العذب النمير، الشنقيطي (٣/ ٤٣٢).

(٢) المرجع نفسه (٣/ ٤٣١).

والهداية تورث المتأمل الخشية من أن يكون قلبه كالأرض السبخة التي لا تنتفع بمواعظ القرآن وزواجره، وكذلك الإقبال على القرآن للباحث عن حياة قلبه، ويُفاد منها أيضًا لأهل التربية والتعليم في ضرب الأمثال وتقريبها للمتعلمين والدارسين؛ فهو أسلوب تربوي له أثر كبير لدى المتلقي.

ويظهر الأثر مدى عناية السلف باستصلاح القلوب واغتنامهم لإشارات القرآن الكريم في إصلاحها، في إشارةٍ وعظيةٍ بأن مَدار الأمر على صلاح القلوب، فتعيَّن أن يكون الوعظ منصبًا إلى إصلاحه، فالاشتغال بصلاح الجوارح وإهمال صلاح القلوب اشتغال بالوسائل عن المقاصد، وذاك شرخ في فقه السير إلى الله تعالى.

إنَّ هذه الآية العظيمة: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[الأعراف: ٥٨] فيها إشارة للمؤمنين والمؤمنات أن يحرصوا على التخلية قبل التحلية، على تخلية قلوبهم من أمراض القلوب قبل أن يحلوها بأعمال الصدق واليقين؛ كي ترقى وتعمل، وفي ذلك يقول ابن بطال [ت: ٤٤٩] في شرحه للبخاري: (لا يقبل ما أنزل الله من الهدى والدين إلا من كان قبله نقيًا من الإشراك والشك. فالتي قَبِلَت العلم والهُدى [يعني: القلوب] كالأرض المتعطشة إليه، فهي تنتفع به فتحيا فتنبت.

فكذلك هذه القلوب البريئة من الشك والشرك، المتعطشة إلىٰ معالم الهدىٰ والدين، إذا وَعَت العلم حَيَتْ به، فعملت وأنبتت بما تحيا به أرماق الناس المحتاجين إلىٰ مثل ما كانت القلوب الواعية تحتاج إليه)[1].

بل إن من ثمرات رقة القلب وطهارته قبوله للعلم وانتفاعه به، «فإذا كان القلبُ رقيقًا ليِّنًا كان قبوله للعلم سهلًا يسيرًا ورسخ العلمُ فيه وثبت وأثَّر، وإذا كان قاسيًا غليظًا كان قبوله للعلم صعبًا عسيرًا، ولا بدَّ مع ذلك أن يكون زكيًّا صافيًا سليمًا حتىٰ يزكو فيه العلمُ ويثمرَ فيه ثمرًا طيِّبًا»[2].

فتعاهد قلبك وأصلح سريرتك؛ كي ترتوي نفسك بغيث الإيمان ويَنشرح صدرك بآيات القرآن: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].



(١) شرح البخاري لابن بطال (١/ ١٦٣).

(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٩/ ٣١٥).

كلُّ صاحبِ بدعةٍ ذليل

بناءُ المفاهيم وتصحيحُها من غايات الرسالة المحمدية، فقد بزغت شمس الرسالة المحمدية بمنظومة مفاهيم ربانية ارتضاها الله لهذه الأمة في سبيل تحرير عقول أبنائها، وتنويرهم بهدي القرآن الكريم، وتغذيتها بأنواره الفرقانية.

نَزَل القرآن بمفاهيم ربانية ما كان للبشرية ولا للعرب علم بها، فسما بهم في مدارج الكمال البشري، وارتقىٰ بهم إلىٰ أسباب المجد والحضارة، **فبناء الوعي يبدأ بصناعة المفاهيم**.

وصناعة المفاهيم حصانة لقيم الأمة ومناعة لها، فلهذا كان قيام الأمم وسؤددها الدنيوي بقدر عنايتها بهذه المفاهيم، وبقدر رسوخها في المجتمع يكون بقاؤها وحياتها.

ومِنْ أعظم المفاهيم المصححة في القرآن: **مفهوم الذِّلة والعزة ومعيارها الصحيح**؛ فالعزة غاية يسعىٰ إليها كل بني آدم، والذلة حضيض ينأىٰ عنه كل البشر، في كل الأعصار والدهور،

وفي كل الديار والبلدان، بل ويمتد للدار الآخرة: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل: ٢٧].

والعقل المستنير بهدىٰ القرآن يلحظ أن هذا الذِّل كتبه الله علىٰ أعدائه في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢] وقال تعالىٰ عن أهل الكتاب: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢].

فأنتَ أيها المبارك تجد أن في ثنايا الحديث عن أهل الكتابين تصحيحًا لمفهوم الذِّلة، وتقريرًا لمعياره الدقيق وهو كونه عقابًا إلهيًّا للمفترين في دينه، فليست الذِّلة لصيقة بصنعة أو عرق أو لون! فعدل الله يأبىٰ ذلك، وإنما الذِّلة والصغار لأعداء الله المحادين لدينه، المفترين علىٰ شرعه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النحل: ١١٦-١١٧].

والافتراء علىٰ الله ألوان وضروب، وأعظمه الابتداع في دين الله، والإحداث فيه بما ليس منه.

فقد جاء عن الإمام سفيان بن عُيينة [ت: ١٩٨] رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما روىٰ عنه الإمام الطبري في تفسيره [ت: ٣١٠] أنه قال عند قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢] (كلُّ صاحبِ بدعةٍ ذليل!)[١].

وهذا المفهوم فهمٌ ثاقبٌ لسياق الآية، مقرونٌ بقراءة عميقة للتاريخ البشري.

ويكاد هذا المفهوم أن يكون مستفيضًا لدىٰ جملة من السلف، فعن أيوب السختياني [ت: ١٣١] قال: (تلا أبو قِلابة هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢] قال: هو جزاء لكل مفترٍ إلىٰ يوم القيامة أن يذله الله!)[٢].

وقال الإمام مالك بن أنس [ت: ١٧٩] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (ما من مبتدع إلا وتجد فوق رأسه ذلة!)[٣].

ومن قبله قال الحسن البصري [ت: ١١٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّ ذُلَّ البدعة علىٰ أكتافهم، وإن هملجت بهم البَغْلَاتُ، وطقطقت بهم البَرَاذِينُ)[٤].

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٤٦٥).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥٦٥).

(٣) تفسير الثعلبي (٤/ ٢٨٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٨)، والبراذين: جمع برذون: وهو الخيل الذي أبواه غير عربيين. ينظر: المطلع علىٰ ألفاظ المقنع، البعلي (ص٢٥٦).

(وإن هملجت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين)، وهذه الصورة البليغة أعظم تقرير لاقتران الذلة بالبدعة، وإن سكنوا القصور في زماننا، وشيدوا ناطحات السحاب، وحلقوا في السماء... فهذا لن يمحو ذل البدعة من وجوههم، فالحق لا يسقط بالتقادم، ولا يتبدل بتغير الزمان والمكان.

والافتراء في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢] هو الاختلاق في أصول الدين بوضع عقائد لا تستند إلىٰ دليل صحيح من دلالة الوحي، ونبي الله موسىٰ عليه السلام كان حذَّر قومه من عبادة الأصنام كما حكاه الله فيما مضىٰ قبل هذه الآية في قوله تعالىٰ: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فقد جعل الله جزاءهم علىٰ الافتراء: الغضب والذِّلة، وذلك إذا فعلوا مثله بعد أن جاءتهم الموعظة من الله تعالىٰ، ولذلك لم يكن مشركو العرب أذلاء، فلما جاء محمد ﷺ ووعظهم وذكرهم وأقام عليهم حجة الله استمروا علىٰ الافتراء= عاقبهم الله بالذِّلة، فأزال مهابتهم من قلوب العرب، وسلب ديارهم، فلما أسلم منهم من أسلم صاروا أعزة بالإسلام[1].

---

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور (٩/ ١٢٠).

ومن هنا يظهر للمتأمل في سياق الآيات متانة أثر سفيان بن عيينة [ت: ١٩٨] رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: «**كلُّ صاحبِ بدعةٍ ذليل**»، فعمَّم تلك الذِّلة لكل صاحب بدعة ابتدع في دين الله وشرعه ما ليس منه، ومن جميل تعليله لذلك أنه جاء في موضع آخر أنه قال: (ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذلة تغشاه، وهو في كتاب الله! قالوا: أين هي؟ قال: أما سمعتم إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ الآية؟ قالوا: يا أبا محمد هذه لأصحاب العجل خاصة! قال: كلا، اقرأ ما بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فهي لكل مفترٍ ومبتدع إلىٰ يوم القيامة)[1]، وصدق أبو محمد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ فكيف تُبتغىٰ العزة من غير مالكها سبحانه وتعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠].



(١) الدر المنثور، السيوطي (٣/ ٥٦٥).

الفرحُ بالقرآن

لما قدم خراج العراق إلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج ومولىٰ له فجعل عمر يَعُدُّ الإبل فإذا هو أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله ويقول مولاه: يا أمير المؤمنين، هذا والله من فضل الله ورحمته، فقال عمر: كذبت ليس هذا هو! يقول الله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨] وهذا مما تجمعون)[١].

لقد كان عمر رضي الله عنه ذاته يرعىٰ الغنم في مكة، واليوم ينهال عليه خراج المدن والبلدان! إنها الدنيا أقبلت بشَرَاشِرها[٢] علىٰ عمر، فما كانت لتغير عمر رضي الله عنه ولا لتقلب مبادئه! فما سرُّ هذا الثبات العمري أمام فتنة المال والملك والحكم؟! حين تقرأ في تفسير الإمام الطبري [ت: ٣١٠] رحمه الله عند هذه الآية تجد معانيَ بديعة للسلف تُبين لك معالم هذا الثبات، ومنها علىٰ سبيل المثال أثر حبر الأمة

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٦٠).

(٢) الشَرَاشِر: النفس. ينظر: مجمل اللغة لابن فارس (١/ ٥٠١)، مادة (شَر).

ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال عن هذه الآية: (**بفضل الله: القرآن، وبرحمته: حين جعلهم من أهل القرآن**)[1].

وقد انتزع ابن عباس رضي الله عنهما هذه الهداية من نحو قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ [الرحمن: ١-٢] فهي هداية مركبة من أكثر من آية.

وصَدَقَ عمر وصَدَقَ ابن عباس رضي الله عنهما، فإن القرآن العظيم أعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه.

فإذا استقر في القلب وتمكن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده وبره به وإحسانه إليه علىٰ الدوام= أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال مترقيًا في درجات العلو الإيماني، دائم التفكر في معانيه، والتدبر لألفاظه، مستغنيًا بمعاني القرآن وحِكَمِه عن كلام الناس، وإذا سمع شيئًا من علوم الناس عرضه علىٰ القرآن، فإن شهد له قبله وإلا رده، فهمته عاكفة علىٰ مراد ربه من كلامه[2].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/ ١٩٧).

(٢) ينظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (١٦/ ٤٩-٥٠).

ولنعم الهمة هذه الهمة، ولنعم الشرف هذا الشرف، يقول عبدالرحمن بن حسن [ت: ١٢٨٥] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (**وأعلىٰ الهمم وأشرفها: إعظام الرغبة فيما أمر الله به من تدبر القرآن كما قال تعالىٰ:** ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩])[١].

فهذا الفرح المحمود محمودٌ في مستنده إذ كان فرحًا بكلام الله، والفرح بكلام الله تابع للفرح به سبحانه، وفرح المؤمن بربه أعظم من فرح كل أحد بموجبات الفرح من المال والملك والولد، وقد أناط الله بهذا الفرح الرباني حياة القلب الإيمانية، فتظهر سرورها في قلب الإيمان ونضرتها في وجهه، فيصير له في الدنيا حال أهل الجنة حيث لقَّاهم الله نضرة وسرورًا[٢] فكان القرآن في حق المؤمنين نعيمًا معجلًا.

وهذا الفرح محمود في آثاره أيضًا، فهو باعث للعلم والازدياد في فقه معاني القرآن كما قال الضحاك [ت: ١٠٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (**حقٌّ علىٰ كل من تعلم الْقُرْآن أَن يكون فَقِيهًا**)[٣]، ومحمود في ثمرته علىٰ أهله فيدركون الفرح الحقيقي الممتد إلىٰ الدار الآخرة، دون الفرح المتوهم المنقلب حسرة وندامة في الآخرة.

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية (١١/ ٤٧٦).

(٢) ينظر: طريق الهجرتين، ابن القيم (ص٢٨١).

(٣) تفسير ابن المنذر (١/ ٢٦٨)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٩٢).

فتيقن أيها المبارك أنه لا شيء أحق أن يفرح العبدُ به في هذه الحياة سوىٰ نعمة القرآن والهداية للإسلام.. فهما نعمتان تستوجبان الشكر والحمد، والرضا والسرور، فذلك خيرٌ من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها، وتأمل دائمًا مشارق هذه الآية ورددها كل حين: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].



مرفأُ الأمان

ألقاهما في البيداء المهلِكة بوادٍ غير ذي زرع، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء، ثم تركهما بصمبت ومضىٰ، فتبعته قائلة: أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الأجرد؟! وهو لا يلتفت إليها، فقالت: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، أجابت بيقين: **إذن لا يضيعنا**، ثم رجعت، فنفد السقاء، وعطشت المرأة وعطش الرضيع، نظرت إليه يتلوَّىٰ، سعت بين الجبلين في كُربة عظيمة وبلاء شديد حتىٰ أذن الله لها بالفرج، وظهر الماء بمعجزة خالدة وجعلت تغرف من الماء في سقائها فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملَك: (لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، **وإن الله لا يضيع أهله**).

لقد كانَ اليقينُ بالله زادَ هذه المرأة، والتوكلُ عليه هو سقاءَها: (**إذن لا يضيعنا**)، تنضح إيمانًا ويقينًا، فكان الله عند حسن ظنها فنجاها من الهلاك ورفعها وخلد ذكرها وابنها؛ فشرع سنتها عبادة للعابدين، يقول ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ وهو يروي قصتها: «**فذلك سعي الناس بينهما**»(١).

---

(١) القصة رواها البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، رقم (٣٣٦٤).

وقد أفاد السلف من معاني هذه القصة في تدبر القرآن العظيم كما في الأثر الذي أسنده الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ قتادة [ت: ١١٧] في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذاريات: ٣٦] قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**لو كان فيها أكثرُ من ذلك لأنجاهم الله؛ لتعلموا أن الإيمان عند الله محفوظٌ لا ضَيْعَةَ علىٰ أهله!**)[١].

هو كما تراه أثرٌ عظيم المعنىٰ يلامس القلوب فيملؤها إيمانًا ويقينًا، إنه حديث عن أعظم أسباب الأمان في الدنيا والآخرة، ودلالة علىٰ أعظم مفاتيح الأمان: الإيمان بالله تعالىٰ (لتعلموا أن الإيمان عند الله محفوظ لا ضيعةَ علىٰ أهله).

(**لن يضيعنا الله!**) تتابع عليها الصالحون وامتدت عبر الأجيال، حتىٰ قالها النبي الكريم ﷺ فأعلنها بيقين وإيمان في وجوه أصحابه ذات مرَّة فقال: «**إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا!**»[٢].

قال العلماء رحمهم الله تعالىٰ: (إن الإنسان كلما حفظ دين الله حفظه الله تعالىٰ في بدنه، وحفظه في ماله وأهله، وفي دينه، وهذه أهم الأشياء، أن يحفظه الله في دينه، ويسلمه من الزيغ والضلال)[٣].

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٥٣٢).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، رقم الحديث (٤٨٤٤)، وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية، رقم الحديث (١٧٨٥).
(٣) شرح رياض الصالحين، الشيخ محمد العثيمين (١/ ٤٨٨).

(لا ضَيْعَة علىٰ أهله) فلهم الأمان التام في الدنيا والآخرة، فإن الإيمان هو أعظم حفظ لدين الله، منجاة من مكاره الدنيا والآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

بل إن هذا الحفظ يمتد كذلك ليشمل حفظ العبد في مشاعره، قال بعض السلف: «العالِم لا يحزن [الحزن المذموم]، وقال بعضهم: من حفظ القرآن مُتِّع بعقله»[١].

ويمتد ليشمل حفظ أبدانهم، فهذا أبو الطيب الطبري [ت: ٤٥٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد جاوز المائة سنة وقد مُتِّعَ بعقله وقوته، فلما سُئِل عن ذلك قال: (هذه جوارح حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر)[٢].

وأشرفُ أنواع الحفظ: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه علىٰ الإيمان[٣]، وهذا هو الحفظ الأسنىٰ واللطف الأخفىٰ، وجلَّ مَنْ لا ينشده.

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٥٧٥).
(٢) المرجع نفسه (١/ ٥٧٥-٥٧٦).
(٣) المرجع نفسه (١/ ٢/ ٣١٣).

ومفتاح الأمان هذا يمتد ليشمل المجتمعات والقرىٰ، فقد أسند الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣] قال: (**كان فيهم أمانان: نبيُّ الله والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقِي الاستغفار: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٤] فهذا عذاب الآخرة، وذاك عذاب الدنيا**)[1].

ويظهر في الأثر عمق فقه ابن عباس رضي الله عنهما ومتانة استنباطه من القرآن الكريم، فهي إشارة أشارت إليها الآية، غَيرَ أن استخراجها من الآية يكون بالفهم السليم والاستنباط الصحيح.

والأمان هاجس الإنسان إذ لا يتحقق له العيش في الأرض بدونه في غابر الدهر ومستقبله، ولا أدل عليه من قول إبراهيم الخليل لقومه في محاجته لهم: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] فلو لم يكن مستقرًّا في ضمائرهم أهميته لم يكن لسؤاله معنىٰ!

واللهُ امتن علىٰ قريش بنعمة الأمن فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٤].

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ١٥٠-١٥١).

غير أننا نلحظ ربط القرآن الأمن الدنيوي بالأمن الديني، وهذا لا يكاد يوجد في جميع نظريات الأمن البشرية؛ وإنما هي من مبتكرات القرآن الإعجازية.

وابن عباس ﷺ كان يُبين للأمة مفهوم الأمن في القرآن الكريم، وهو الأمن الديني الذي إن تحقق جاءت الدنيا تبعًا، وهذا الأمن إن كان نجاة من عذاب الاستئصال في الدنيا فكذلك يدخل فيه سائر أنواع الأمان فيه كالأمن الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ونحوها كما في آيات أخرىٰ.

إنك إن تأملت أخي المبارك في الآية الكريمة: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٦] **ظهرت لك عدة إشراقات قرآنية، والتي منها مثلًا ما قاله بعض المفسرين:** إن العَالَم كبدن الإنسان، ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة، والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة، ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه المضار هلك، وإن خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشه ونما، وإن وجد فيه كلاهما فالحكم للغالب، فكذلك البلاد والعباد[1].



(١) ينظر: تفسير الرازي (٢٨/ ١٨١).

اللهُ أعلمُ بالذي يُصلح خَلْقَه

من محارات العقول مِنَن الله علىٰ عباده بالموت! فتلك المحنة مبطنة بمنح، فلولاه ما هنأ العيش، ولضاقت المساكن والمدن والأسواق والطرقات:

يُعَجِّل تخليصَ النفوس من الأذى

ويُدْني إلى الدَّارِ التي هي أشرفُ

ومنةُ الله بالموت تعظم إذا كان فيه حياة وطهرة وعدل كما في حكمة القصاص[1]، فالقصاص حياة وإن كان ظاهره موتًا، فهو قتل لواحد ليحيا الناس جميعًا، حياة للقاتل فهو طهرة له فآل أن يكون حياة له في الدار الآخرة[2]، وحياة لأولياء الدم من الغيظ والجور في الانتقام، وحياة للقلوب أيضًا؛ فسبحان من تنزهَت شريعتُه عن خِلَاف ما شرعها عليه من أهواء العقول الفاسدة والآراء القاصرة.

---

(١) ينظر: أعلام الموقعين، ابن القيم (٣/ ٣٥١).

(٢) ينظر: تفسير الثعلبي (٤/ ٣٧١) فقد حكاه قولاً في الآية.

أخرج الإمام الطبري [ت: ٣١٠] في تفسيره عند قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩] عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ [ت: ١١٧] قال: (**جعل الله هذا القصاص حياةً ونكالًا، وعظة لأهل السفه والجهل من الناس، وكم من رجل قد همَّ بداهية لولا مخافة القصاص لوقع بها، ولكنَّ الله حجز بالقصاص بعضهم عن بعض، وما أمر الله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح في الدنيا والآخرة، ولا نهىٰ الله عن أمر قط إلا وهو أمر فساد في الدنيا والدين، والله أعلم بالذي يصلح خلقه**)[1].

والأثر مُبرزٌ لوجه من مزايا التشريع القرآني غاص في معانيه قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو جَعْلُ القصاص حياة، وهذا من أعجب التراكيب البيانية في القرآن، وقد امتزج التشريع القرآني بالإعجاز البياني؛ فيجد المتأمل الدقة العجيبة في الصياغة التشريعية، مع حسن بيان وجمال ألفاظ.

والمتأملُ في وجوه الابتكار في هذا النظم القرآني البديع الذي فاق به المثل العربي: (القتل أنفىٰ للقتل) يظهر له أربعةُ أوجه:

أولًا: تضمنه ما في المثل الأول من المعاني.

ثانيًا: زيادة معانٍ حسنة كإبانة العدل لذكره القصاص.

ثالثًا: إبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة.

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٢١).

رابعًا: الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به[1].

أيضًا لأثر قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ اللَّهُ بُعد إيماني في إشارته لقاعدة التشريع الإسلامي، وهو جلب المصالح ودرء المفاسد، فهذه الإشارة للقاعدة التشريعية في مقام تقرير فروع الشريعة يُراد منه تحريك مشاعر الإيمان في وجدان المسلم، فتذكير المسلم بها يورثه استسلامًا لهذه الأحكام وتمثلًا لها.

إنَّ يقين المؤمن بأن الشريعةَ كلَّها صلاح كما قال قتادة [ت: ١١٧] يجعل تكاليف الدين تشريفًا عند المؤمن فهو يستشعر كمالها، وأن بها صلاح الدنيا والآخرة، ويستشعر أنه قد ضلَّ أكثر الناس عن هذه التكاليف ولم يهتدِ لها إلا من أشرقت له شمس الرسالة وعرف القرآن والوحي.

يقول العز بن عبدالسلام [ت: ٦٦٠]: (كل مأمور به ففيه مصلحة الدارين أو إحداهما، وكل منهي عنه ففيه مفسدة فيهما أو في إحداهما، فما كان من الاكتساب محصلًا لأحسن المصالح فهو أفضل الأعمال، وما كان منها محصلًّا لأقبح المفاسد فهو أرذل الأعمال)[2].

---

(١) ينظر: النكت في إعجاز القرآن، الرماني (ص ٧٧-٧٨)، وقد توسع العلماء في ذكر هذه الوجوه، ومن أوسع من ذكرها السيوطي في الإتقان فذكر عشرين وجهًا في ذلك. ينظر: الإتقان (٣/ ١٨٦-١٨٨).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبدالسلام (١/ ٨).

ومن استقرأ موارد الشريعة الإسلامية استبانَ له أن المقصد العام من التشريع: هو حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح الخليفة عليه «الإنسان» إصلاحًا شموليًّا يشمل صلاحه وصلاح عقله وصلاحَ عمله وصلاحَ ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيشُ فيه... وذلك إنما يكون بتحصيل المصالح واجتناب المفاسد(١).

وقد استخدم قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ ٱللَّهُ مصطلح القرآن «القصاص»، ولعله قصد من ذلك الإشارة إلىٰ أن هذا اللفظ قد دل علىٰ إبطال التكايل بالدماء، وعلىٰ إبطال قتل واحد من قبيلة القاتل إذا لم يظفروا بالقاتل(٢).

ويظهر الأثر حفاوة الشريعة بالحياة مما يجعل المتدبر يدرك نعمة لا يدركها كثير من الناس وهي نعمة الحياة، والسبيل إلىٰ إدراك نعمة الحياة هو حياة الروح بتدبر القرآن، كما يبين الأثر ميزة مهمة من مزايا التشريع الإسلامي، وهو امتزاج التشريع بالموعظة وتحريك القلوب في تكامل واضح بين شرائع الإسلام وحياة قلب المؤمن؛ ذلك أن جمالية الشريعة لا تدرك إلا بحياة القلب، كما أن هذه الشرائع لا يمكن الإتيان بها علىٰ الوجه الأكمل إلا بحياة القلب.

---

(١) ينظر: مقاصد الشريعة، ابن عاشور (٣/ ١٩٤-٢٣٠).
(٢) ينظر: تفسير ابن عاشور (٢/ ١٤٥).

كما يُبين الأثر أن هذه الشريعة جاءت رحمة بالعباد جميعًا، وأن الشريعة ليست متعطشة للدماء، وأنها جاءت بحفظ النفوس التي هي إحدىٰ الضروريات الخمس التي جاءت الشريعة بحفظها.

ومن إشراقات الآية: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩] ما قاله الإمام ابن القيم [ت: ٧٥١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (فلولا القصاص لفسد العالم، وأهلك الناس بعضهم بعضًا ابتداءً واستيفاءً، فكأن في القصاص دفعًا لمفسدة التجري علىٰ الدماء بالجناية وبالاستيفاء، وقد قالتِ العرب في جاهليتها: «القتل أنفىٰ للقتل» وسفك الدماء يحقن الدماء؛ فلم تغسل النجاسة بالنجاسة، بل الجناية نجاسة والقصاص طهرة، وإذا لم يكن بد من موت القاتل ومن استحق القتل فموته بالسيف أنفع له في عاجلته وآجلته)(١).



---

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٣٥٠-٣٥١).

توثيقُ الحقوق

«بعثَ موسىٰ بالجلالِ، وبعثَ عيسىٰ بالجمالِ، وبعثَ محمد بالكمالِ»[1]، هذا الكلام الجامع قاله الإمام أبو العباس ابن تيمية [ت: ٧٢٨] وصَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فكمال الشريعة المحمدية تُدرك في فروعها قبل أصولها، وفي دقائقها قبل كواملها.

إنَّ من جمال الشريعة تنظيمها لحقوق الناس فيما بينهم، وإقامتها علىٰ أسس صلبة تستمد من صلة العباد بربهم، فقرن إيتاء الزكاة بإقامة الصلاة، فأظهرتْ جماليةُ التشريع بالإحسان في حق الخالق وحق الخلق، جلالًا في جمال، وإحسانًا في كمال.

وفي مشارق أطول آية في كتاب الله يتجلىٰ بعضٌ من ملامح هذا الجمال، فكانت الآية حَريَّة بأن يسميها بعض العلماء «أرجىٰ آية»! يقول الزركشي [ت: ٧٩٤] في «**برهانه**»: (إنَّ الله تعالىٰ أرشد عباده إلىٰ مصالحهم الدنيوية، حتىٰ انتهت العناية بمصالحهم إلىٰ

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ٨٦).

أن أمرهم بكتابة الدَّين الكبير والحقير، فبمقتضىٰ ذلك يرجىٰ عفو الله تعالىٰ عنهم؛ لظهور أمر العناية العظيمة بهم حتىٰ في مصلحتهم الحقيرة)[1].

وقد فَقِه السلف لمقاصد التشريع الرباني وغاياته في آية الدين، فجادت قرائحهم بنفائس الهدايات، وبليغ العظات، فقد أسند الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] قال: (عَلِم اللهُ أن ستكونُ حقوق، فأَخَذ لبعضِكم من بعضٍ «الثقة» فخُذوا بثقةِ الله، فإنه أطوعُ لربِّكم، وأدرَكُ لأموالِكم، ولعَمْرِي لئن كان تقيًّا لا يَزيدُه الكتاب إلا خيرًا، وإن كان فاجرًا فبالحَرَىٰ أن يُؤَدِّيَ إذا علِم أنَّ عليه شُهودًا)[2].

ألست ترىٰ أيها الموفق أن كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ كأنه مبدأٌ قانونيٌّ معاصر سطره ببلاغة وحكمة، مازجًا فيه الفقه بالوعظ، والوسائل بالمقاصد، في لغة سهلة يفهمها كل عاقل.

ومن بدائع هذا المبدأ: بيانه أن الإشهاد والتوثيق في المعاملة طاعةٌ لله سبحانه كما هو حفظٌ للمال، مجليًا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ جمال الشريعة وبهاءها في جمعها بين خيري الدنيا والآخرة.

---

(١) البرهان في علوم الدين، الزركشي (١/ ٤٤٦).

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٩٢).

تزخر قاعات المحاكم بكثير من القضايا كان سببها هجر هذا الإرشاد الرباني، في أُميَّةٍ مؤلمة بُليت بها الأمة بعد هجرها لكتاب الله وتدبر معانيه التشريعية.

وكم ضاعت حقوق بسبب هجر هذا الإرشاد الرباني، والسير مع مراضي الله كما هي نجاة في الآخرة فهي كذلك حفظ لدنيا الناس.

لقد تجلل جمال هذه الوثيقة بعمق فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ لأقسام الناس ونزغات النفوس، مبينًا رَحِمَهُ اللَّهُ أن توثيق الحقوق والإشهاد علىٰ الديون حصافة وألا تعارض بين التقوىٰ وتوثيق الحقوق: (**ولعَمْرِي لئن كان تقيًّا لا يَزِيدُه الكتاب إلا خيرًا**).

وتلك سبب الانتكاسة التي مُنِي بها بعضهم في ثقافة الحقوق، فانتشرت فيها الأمية الحقوقية، وشاع فيها الجهل بالتوثيق، فضاعت أموال اليتامىٰ، وانتكست الحقوق، وفسدت دنيا الناس بحجة أن التوثيق يتنافىٰ مع الثقة، متجاهلين أن الثقة بالله وشرعه وهي الكتابة والإشهاد= أعظم وأولىٰ بالركون إليها من الثقة بالناس.

ومن هنا نعلم أن أطول آية في كتاب الله جاءت في حفظ حقوق الناس وإقامة العدل بينهم، في دلالة واضحة علىٰ أن الشريعة جاءت لعمارة الدنيا وإصلاحها كما جاءت لعمارة الآخرة والسعي لها، في كمال تشريعي لا تضاهيه فيه شرائع السماء بَلْه قوانين الأرض:

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولكي تظهر لك مشارق آية الدين بصورة أخرىٰ أيها المتدبر، طالع ما قاله المفسر ابن العربي [ت: ٥٤٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «أحكام القرآن»، حيث يقول عن هذه الآية بكلامٍ جامع: (هي آية عُظمىٰ في الأحكام، مبينة جملًا من الحلال والحرام، وهي أصل في مسائل البيوع، وكثير من الفروع... ونُقل عن الشَّعْبي [ت: ١٠٤]: البيوع ثلاثة: بيع بكتاب وشهود، وبيع برهان، وبيع بأمانة؛ وقرأ هذه الآية؛ وكان ابن عمر إذا باع بنقد أشهد، وإذا باع بنسيئة كتب وأشهد، وكان كأبيه وقافًا عند كتاب الله تعالىٰ، مقتديًا برسول الله ﷺ)[1].



(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٣٢٧-٣٤١).

الغفلة عن العقوبة

لم تندمل بعدُ جراحهم، ولم تغمد سيوفهم، ولم تنكأ قروحهم من فرقة الأحباب وثقل الهزيمة ووجع النائبة، فقدوا من أحبابهم سبعين رجلًا، يعدل كل منهم أمة وحدَه، لكنها سنن الله لا تحابي أحدًا، والأيام دول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

هناك علىٰ سفح جبل «أُحد» كانت أعظم المعارك، وأعظم العبر لأعظم جيل علىٰ وجه الأرض لتمتد تلك العبر في ذاكرة الأمة ما بقي جبل أحد، وبقيت قبور شهدائِه.

إنَّ أعظمَ الأمم هي التي تصنع من هزيمتها نصرًا، ومن نقطة الانكسار شموخًا، فالألم مدرسة، والمراجعة مصنع الرجال، ولهذا خلَّد القرآن دروس «أحد»؛ لتبقىٰ غضَّة طرية في ذاكرة الأمة، يستفيد منها كل عصر وكل جيل.

لم نرَ القرآن فصَّل في غزوة بدر كتفصيله في غزوة أحد، وتلك علامة فارقة لدىٰ متدبر القرآن!

من الإجابات على ذلك هي في تأملات السلف لآيات غزوة أحد وعبرها ودروسها كما في الأثر الذي أسنده الإمام الطبري [ت: ٣١٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الحسن البصري [ت: ١١٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] قال: (وكيف عفا عنهم وقد قُتِل منهم سبعون، وقُتِل عمُّ رسول الله ﷺ وكُسِرَت رَبَاعِيَّتُه، وشُجَّ في وجهه؟ قال الله تعالى: قد عفَوْتُ عنكم إذ عصَيتُموني أن لا أكون اسْتَأْصَلْتُكم! هؤلاء مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، غِضَابٌ لله، يُقَاتِلونَ أعداءَ الله، نُهُوا عن شيءٍ فضيَّعوه، فوالله ما تُرِكُوا حتى غُمُّوا بهذا الغَمِّ، فأفْسَقُ الفاسقين اليومِ يتجرْثَم[1] كلَّ كبيرة، ويَرْكَبُ كلَّ داهية، ويسحب عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه، فسوف يَعْلَم!)[2].

فأنت أيها الفاضل ترى كيف رسم لنا سيد التابعين رَحِمَهُ ٱللَّهُ المنهج الأسمى في قراءة غزوة أحد قراءة المعتبرين، فليست أحد غزوة انتهت أو حدثًا عابرًا فحسْب، بل دروس متجددة، وعبر ممتدة، ومن هنا كان التركيز القرآني عليها أكثر من غيرها.

---

(١) تجرثم الشيء: أصله ومعظمه. ينظر: العين، المنسوب للخليل بن أحمد (٦/ ٢٠٧)، الصحاح، الجوهري (٥/ ١٨٨٦)، مادة (جَرْثَم).

(٢) تفسير الطبري (٦/ ١٤٤).

إننا نجد في هذا الأثر فقهًا في تنزيل الواقعة العظمىٰ علىٰ واقع الزمان، وتوظيفه في علاج أدواء الناس، وهذا هو عين التدبر، ورأس الفقه؛ وما نزل القرآن إلا ليُعمل به، وتؤخذ منه العبر والعظات.

وفي هذا التنزيل ربط اللاحق بالسابق، فالتاريخ يعيد نفسه، وسنن الله لا تتبدل: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣].

إنه ليفتح عين المتأمل ألَّا تمر عليه العقوبات الإلهية مرور الكرام، ونجدُ في قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الأثر: **(وكيف عفا عنهم وقد قُتِل منهم سبعون، وقُتِل عمُّ رسول الله ﷺ وكُسِرَت رَبَاعِيَّتُه، وشُجَّ في وجهه؟!)**.

إنه يريد من المؤمن أن يكون فطنًا لشؤم المعاصي، كما كان قلب الأوائل المنيبين كالإمام الفضيل بن عياض [ت: ١٨٧] حين قال: **(وإني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلق حماري وخادمي)**[(١)].

تلك القلوب الحية التي تتفطن لشؤم المعاصي والإصرار عليها، فشؤمها ووبالها لا يتأخر لكنه يصغر؛ غير أن المحك هو بمدىٰ رؤية الشؤم قبل استفحاله والخطر قبل انتشاره.

---

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٠٩).

(فوالله ما تُرِكُوا حتىٰ غُمُّوا بهذا الغَمِّ) هؤلاء الصحب الكرام عُوقِبُوا بالغم، والغم عقوبة منسية، وبلاؤنا اليوم أننا لا نفقه من عقوبات المعاصي إلا المحسوسات كنقص الأموال والأنفس والأولاد.

وها هنا كلام نفيس لابن الجوزي [ت: ٥٩٧] رَحِمَهُ اللَّهُ قلما تفطن له المصرُّ علىٰ المعاصي وقلما انتبه له كثير من الناس، يقول فيه: (وربما رأىٰ العاصي سلامة بدنه وماله، فظنَّ أن لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة، وقد قال الحكماء: المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة، وربما كان العقاب العاجل معنويًّا، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب! **كم أعصيك ولا تعاقبني! فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري! أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟!** فمن تأمَّل هذا الجنس من المعاقبة، وجده بالمرصاد)[1].

ذلك الجيل الطاهر عُوقِبوا بالغم، فنحن حتمًا نُعاقب لكن عقوبتنا الأعظم هي الغفلة عما نُعاقب به، وهذا من أعظم بلايا الغفلة عن العقوبات: ركوب الدواهي وتقحم الكبائر، فليست المسألة أن هؤلاء لا يعاقبون وأولئك الأخيار يعاقبون، وإنما المسألة: أن أولئك يشعرون بالعقوبة ويتوبون فينجون ويرتقون، وهؤلاء يغفلون عن العقوبة ويصرون، أولئك يبصرون العقوبة وإن دقت، وهؤلاء لا يُبصرون ولا يتوبون ولا هم يذَّكَّرون!

---

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي (ص ٦٥-٦٦).

ومن مشارق الأثر الواعظة للقلوب ما كتبه عمر بن عبدالعزيز [ت: ١٠١] إلىٰ أحد عماله في كتاب تعجب منه الشَّعْبي [ت: ١٠٤]: (**أمَّا بعد: فلا تغترَّ بتأخير عقوبة الله تعالىٰ عنك، وإنما يعجل من يخاف الفوت، والسلام**)[١].



(١) العقوبات لابن أبي الدنيا (ص١٦٨).

التاجرُ الأمين

من جلال شريعتنا وكمالها أن مباحات الدنيا قد تكون قربات وطاعات: «**وفي بضع أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»[١].

قال النووي [ت: ٦٧٦] رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي هذا دليل علىٰ أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات)[٢]، وهذا من سعة الشريعة ورحمتها، ولهذا قال سيد العلماء معاذ بن جبل رضي الله عنه: **فإني أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي**[٣].

فالشريعة لم تأتِ لمنع الناس من حاجاتهم وقوام معيشتهم، ولم تأتِ للحرب علىٰ الدنيا بل جاءت لتنظيم الدنيا، ولهذا كان الأصل في

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع علىٰ كل نوع من المعروف، رقم الحديث (١٠٠٦) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (٧/ ٩٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسىٰ ومعاذ إلىٰ اليمن، رقم الحديث (٤٣٤١).

عادات الناس الحل، وجمهور الفقهاء علىٰ أن الأصل في المعاملات المالية هو الحل والإباحة في رسالة واضحة إلىٰ أن هذه الشريعة ليست حربًا علىٰ الدنيا، بل كانت هذه القاعدة الفقهية دعوة واضحة إلىٰ الانتشار في الأرض وابتغاء فضل الله تعالىٰ.

وهذا هو الفهم الذي فهمه السلف الصالح من آيات الأحكام كما في مجال المعاملات، فقد أسند الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٩] قال: (**التجارةُ رزقٌ من رزقِ الله، وحلالٌ من حلالِ الله لمن طَلَبها بصدقِها وبِرِّها، وقد كنا نُحَدَّثُ أن التاجرَ الأمينَ الصدوق مع السبعة في ظل العرش يوم القيامة**)[(١)].

فقد جمع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الهداية بين نصوص الذم للتجار كقوله ﷺ: «**إن التجار هم الفجار**»، قالوا: يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع، وحرم الربا؟ قال: «**بلىٰ، ولكنهم يحلفون ويأثمون**»[(٢)]، وبين نصوص الثناء والمدح كما في قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠] وفضل الله هي التجارة[(٣)].

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٦٣٠).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، مسند المكيين، حديث عبدالرحمن بن شبل، رقم الحديث (٢/ ١٥٦٦٦)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٣) ينظر: تفسير الشنقيطي (٦/ ٧٧).

وقال عمر ﷺ: (ما جاءني أجلي في مكان ما عدا في سبيل الله عز وجل أحبُّ إلي من أن يأتيني وأنا بين شعبتي رحلي أطلب من فضل الله)، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[المزمل: ٢٠])[1].

وقد انتزع ﷺ هذه الهداية من سياق الآية، فلحاق الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ والجمع بين الدليلين أولىٰ من العمل بأحدهما كما هي القاعدة عند الأصوليين.

وقال ﷺ في حديث عمرو بن العاص ﷺ: «**نِعْمَ المال الصالح للمرء الصالح**»[2].

وكما في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: «**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء**»[3].

قال ابن العربي [ت: ٥٤٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هذا الحديث وإن لم يبلغ درجة المتفق عليه من الصحيح فإن معناه صحيح؛ لأنه جمع الصدق والشهادة بالحق والنصح للخلق وامتثال الأمر المتوجه إليه من قبل الرسول ﷺ)[4].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي، التوكل بالله (٢/ ٤٥٠).
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب المال الصالح للمرء الصالح، رقم الحديث (٢٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص١٢٦).
(٣) أخرجه الترمذي، أبواب البيوع، باب ما جاء في التجار، رقم الحديث (١٢٠٩) وقال: (هذا حديث حسن)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص١٤٥).
(٤) عارضة الأحوذي، ابن العربي (٥/ ١٦٨).

إنَّ أعظمَ وسائل اكتساب المال: التجارة الرابحة، وأكثر أسباب الرزق متعلقة بها[1]، وهذا يُبين عمق الفقه في الأثر؛ إذ فيه حث علىٰ التجارة علىٰ صدق وبرٍّ، والمتأمل في جميع مسائل الاقتصاد يجد أنها ترجع إلىٰ أصلين عظيمين: اكتساب المال الحلال، وصرفه في مصارفه المباحة[2].

لقد تبحر التابعي الجليل قتادة [ت: ١١٧] في معاني الآية، مبينًا للناس فضائل التجارة الدينية والدنيوية بشرطها الشرعي، وذلك في قوله: (**لمن طلبها بصدقها وبرها**)، ولهذا أفاد منه الإمام الطبري [ت: ٣١٠] في تفسيره فقال عند هذه الآية: (ففي هذه الآية إبانة من الله تعالىٰ ذكره عن تكذيب قول الجهلة من المتصوفة المنكرين طلب الأقوات بالتجارات والصناعات)[3].

فمراعاة مثل هذه المفاهيم في التجارة والاقتصاد فيها إحياء لقيم الصدق والبر في المجتمع، فهي منارة اقتصادية وإضاءة أخلاقية، وهذا من عظيم آثار تدبر القرآن الكريم، فهو إنهاض للأمة في كافة جوانب الحياة، ومنه: الجانب الاقتصادي الذي به تصلح أمورهم مع بعضهم لبعض وتحكمهم بمبادئ أخلاقية عالية.

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري (١/ ٥٠٢).

(٢) ينظر: تفسير الشنقيطي (٦/ ٧٧).

(٣) تفسير الطبري (٦/ ٦٢٩).

أيها التُّجار الكرام! إنَّ التمسكَ بتعاليم الشريعة في جميع جوانب الحياة بركةٌ علىٰ المرء والمجتمع، وتأملوا كيف حول المفهوم الإسلامي للتجارة والاكتساب إلىٰ جزاء وافر في الآخرة يصل إلىٰ جعلكم بإذن الله تحت ظل الله يوم لا ظل إلا ظله بشرط الأمانة والصدق والبر، فهنيئًا للتاجر الأمين الصدوق!



قيامُ الرحمة والإحسان

كانت الأسرةُ محطَّ عين الإسلام، ومحلَّ عناية الشريعة واهتمامها، فهي مؤسسة المجتمع الأولىٰ، وهي مصنعُ الرجال، ومهدُ الأجيال، ونواةُ المجتمع.

وعناية الإسلام بالأسرة ظاهرة في أول نشأتها، وذلك بالدعوة إلىٰ حسن اختيار الرفيق والشريك، فقال ﷺ موجهًا الرجل: «**فاظفر بذات الدين، تربت يداك**»[1]، وقال للمرأة وأوليائها: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخُلقه فأنكحوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»[2]، إلىٰ تلك التشريعات العظيمة التي تقرِّرُ أحكام انتهاء الزوجية، فنجدُ أحكام الطلاق في الإسلام في غاية العدل،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم الحديث (٥٠٩٠)، وأخرجه مسلم، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم الحديث (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومعنىٰ تربت يداك: لصقتا بالتراب، وهو خبر بمعنىٰ الدعاء. ينظر: فتح الباري لابن حجر (٩/ ١٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي، أبواب النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه، رقم الحديث (١٠٨٥) من حديث أبي حاتم المزني، وقال: (هذا حديث حسن غريب)، وحسنه الألباني لغيره. ينظر: إرواء الغليل (٦/ ٢٦٨).

ونجد الكمال في أحكام العدة والإحداد، في تعظيم ظاهر لهذا الميثاق: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١].

ولأن الزواج ميثاقٌ غليظ تولىٰ الله تبارك وتعالىٰ بنفسه تنظيم هذه المؤسسة، ببيان الواجبات والحقوق لركني الأسرة وعمودها: وهما الزوجان؛ تنظيمًا وضبطًا وعدلًا، ومحافظة عليها من زعازع الأهواء ورياح الخلافات، واجتنابًا لعناصر الهدم والتدمير.

ومن جماليات استقراء السلف لهذه المعاني التشريعية من كتاب الله وشرحهم لها، ما أسنده الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ **تعالىٰ** [ت: ٣١٠] **إلىٰ ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ:** ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] **قال** رضي الله عنه: **(أمراء! عليها أن تُطِيعَه فيما أَمَرها اللهُ به من طاعتِه، وطاعتُه: أن تكونَ مُحْسِنةً إلىٰ أهلِه، حافِظَةً لماله، وفضْلُه عليها بنفَقَتِه وسَعْيِه)**[1].

فقد بيَّن رضي الله عنه حقوق كل طرف بعبارة وجيزة وشرح لطيف، وأنتَ إذا تفكرتَ هذا الأثر في ضوء شريعة الله أمام قوانين البشر= لمستَ الحكمة والعدل والفطرة، ومن خلالها يختفي الصراع المفتعل بين الجنسين، ويكون شعار الشراكة: مودة ورحمة، ومحبة ونعمة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٦٨٧).

إنَّ مما يميز التشريع الإسلامي: اقتران الحقوق بالواجبات: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وهذا أكمل ما يكون في بناء المسؤولية الفردية، وتأهيل الزوجين للدخول في هذه الشراكة العظيمة.

ومِنْ تأهيل المرأة لمؤسسة الزوجية تعليمها ما لها وما عليها، وبيان الحقوق والواجبات لها، إذ في ذلك استقرار للمرأة وللأسرة من ورائها، وهذا الأثر بين أيدينا يمثل مبادئ واجبات المرأة في الإسلام، ونجدُ في هذا الأثر امتداد إصلاح المرأة ليمتد نحو أهل زوجها وماله، ويكاد يكون هذا الأثر من الآثار الواضحة الصريحة في حث الزوجة علىٰ الإحسان لأهل زوجها والدخول عليهم بخير وإحسان.

وقد جاء في بيان هذه الواجبات أحاديثٌ نبويةٌ ركزت علىٰ هذه المعاني أيضًا كحديث أبي هريرة مرفوعًا: «**خير نساء ركبن الإبل نساء قريش... وأرعاه علىٰ زوج في ذات يده**»[1].

قال الحافظ العراقي [ت: ٨٠٦]: (والمراد حفظها مال الزوج وحسن تدبيره في النفقة وغيرها وصيانته عن أسباب التلف)[2].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب النفقات، باب حفظ المرأة زوجها في ذات يده، رقم الحديث (٥٣٦٥)، وأخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل نساء قريش، رقم الحديث (٢٥٢٧).

(٢) طرح التثريب (٧/ ١٤).

فَفُهِم من هذا الواجب أن قوامة الرجل عليها إغناء للمرأة؛ بَيْدَ أن هذا الإغناء لا يعني التبذير بل رعاية مال الزوج كما قال ﷺ في الأثر: حافظة لماله.

ويمتد عَبْقُ صلاح المرأة إلىٰ أهل زوجها، وهذا التأصيل ليس تنظيرًا فحسْب، بل تقرره تراجم الصالحات، وفي مقدمتهن حبيبة رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، كما جاء في حديث عروة بن الزبير رَحِمَهُ اللَّهُ عن عائشة رضي الله عنهما قال: «**وكانت أَرَقَّ شيء عليهم؛ لقرابتهم من رسول الله ﷺ**»[1]، واللطيف أن يكون الراوي عنها هو من أجل قرابتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ابن أختها وربيبها عروة بن الزبير، والعجيب أن يكون هذا بعد وفاة رسول الله ﷺ، فما أعظم حسن العهد والوفاء!

يقول ابن القيم [ت: ٧٥١] رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض تقريره لخدمة المرأة لزوجها -وهي من المسائل المبنية علىٰ قوامة الرجل-: (فهذه أشرف نساء العالمين «يعني: فاطمة الزهراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا»، كانت تخدم زوجها وجاءته ﷺ تشكو إليه الخدمة، فلم يُشْكِهَا)[2].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب قريش، رقم الحديث (٣٥٠٣).

(٢) زاد المعاد (٥/ ١٧١)، ومعنىٰ لم يُشْكِهَا: لم يُزل سبب شكايتها وهو الخدمة.

فتسليم المرأة بإمرة الزوج وقوامته عليها من كمالها وتقواها وشرف نفسها، فليس في تسليم المرأة لهذا الأمر الإلهي ضعفٌ منها وحطٌّ من قدرها.

ومن بديع مشارق الآية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] ما قاله ابن عاشور [ت: ١٣٩٣]: (وقيام الرجال علىٰ النساء هو قيام الحفظ والدفاع، وقيام الاكتساب والإنتاج المالي)[1].

أيتها النساء الكريمات! إنَّ آية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤] تشريع لأجل المرأة ومن أجل مصلحتها وحمايتها لا قهرها ولا إذلالها، ويكفي في ذلك أن جاء تقرير حق القوامة للرجل في السورة التي كان محورها تقرير حقوق النساء؛ فمقتضياتها النفقة عليها والسعي عليها والحفظ والدفاع عنها! فتؤول هذه القوامة التي في ظاهرها حق للرجل إلىٰ أن تكون حقوقًا للمرأة ويكون قِوامه عليها قوام الحفظ والدفاع والرحمة والإحسان، وتلك من أسرار شريعة اللطيف الخبير.



---

(١) تفسير ابن عاشور (٥/ ٣٨).

إلى كل مُصلِح

الإصلاح هو الغاية الكبرىٰ لرسالات السماء، والمقصد الأسمىٰ للقرآن، فكان ظاهرًا في بعضِ آيِه، ولائحًا في أُخراها: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

هو مناط نجاة الأمم وبقاء الدول والحضارات، جاء صريحًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧] نصًّا غير قابل للتأويل، وظاهرًا غير مرجوح، وحقيقة لا مجازًا.

فالمناط بالإصلاح وليس بالصلاح، والإنسان الذي يريده القرآن هو المصلح لا الصالح المنزوي، والحياة تشرقُ بالمصلحين وتسعد بهم، الذين هم رواد الأمة وطليعتها.

ولما كان دَربُ الإصلاح محفوفًا بالمشاق والمكاره، كان المصلحُ معانًا من قبل الله تعالىٰ كما بيَّنه ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]

قال: (**وذلك الحكمان، وكذلك كلُّ مُصْلِحٍ يُوَفِّقُه اللهُ للحق والصواب**)[1].

إنَّ التوفيق هبة ربانية يسعىٰ إليها الناس، فتسود المودة والمحبة في البيوت، ويشيع السلام والرحمة في المجتمع، وتجعل للحياة معنىٰ وبهجة، فهي ماء الحياة وقلبها النابض، فما الحياة إن عدم المرء توفيق ربه؟!

وفي خضم هذا الوعد الإلهي إشاعةٌ للإصلاح في المجتمع المسلم، فهي من أعظم بواعث النفس لركوب مخاطر الإصلاح، وما فيه من بذل وتضحيات ومخاطرة، فكل الصعاب يسهل حين تقر في نفس المؤمن: (**كلُّ مُصْلِحٍ يُوَفِّقُه اللهُ للحق والصواب**).

وفي هذا التعميم تعليم منه ﵁ للقارئين طرائق التدبر ومسالكه التي بها ينتزع مواعظ القرآن ومشارقه الفرقانية، وذلك بالاستنباط الجميل من الآية أن كلَّ مصلح إن كان مخلص النية يوفقه الله للحق والصواب.

ومن أعظم وقفات هذا الأثر أن فيه إصلاحًا للمصلحين، بتنبيههم علىٰ عظم النية وأساس التوفيق وهو: «**صلاح القلب**»، فهو يُطلع المصلحين علىٰ سرِّ الفلاح في مسيرتهم، ويوقفهم علىٰ أسبابِ

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٧٣٠).

الفشل، يقول الإمام ابن تيمية [ت: ٧٢٨] رَحِمَهُ اللَّهُ: (والله سبحانه قيَّد الإصلاح الذي يُثِيب عليه «بالإخلاص»، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤] إذ كثير من الناس يقصدون الإصلاح: إما لسمعة وإما لرياء)[1].

وأفاد ﷺ من تنبيه الآية أن من أصلح نيته في أمر يتحرَّاه أصلح الله مبتغاه، وأن البلية منوطة بفساد النية[2]، فالمصلحون هم الرواد وأعلىٰ ما ينبغي إصلاحه هم الرواد، فكيف يستقيم الظل إذا كان العود أعوج؟!

ليس الإصلاح دعوىٰ فحسْب؛ ففرق بين الإصلاح وادعائه، وتعميم ابن عباس رضي الله عنهما تؤيده عموميات الشريعة في موضوع الإصلاح عمومًا، وكذا التوفيق لكل مصلح في كل ميدان من ميادين الخير والعطاء.

فما أسعد المصلحين الصادقين! وما أعظم أجورهم!



---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (١١/ ٥٥٠).

(٢) ينظر: تفسير الراغب (٣/ ١٢٢٨).

ميزانُ الأعمال

في لحظاتِ الاحتضار حيثُ الوداع الأخير، ومع هول اللحظة وألم النزع لا مجال للتصنع ولا للتمثيل، هناك تظهر كوامن النفوس وتبرز حقائق القلوب، وقد قال العلماء رحمهم الله تعالىٰ: (قد أجرىٰ الكريم عادته بكرمه أنه من عاش علىٰ شيء مات عليه، ومن مات علىٰ شيء بُعِث عليه)[1].

في مثل هذه اللحظات يحضرون عند عامر بن عبدالله العَنْبَري [ت: قبل ٦٠] **فيجدونه باكيًا فيقولون له: ما يُبْكِيك، فقد كنتَ وكنتَ؟ فقال: يُبْكِيني أني أسمَعُ الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾**[المائدة: ٢٧])[2].

إنَّ خير ختام للمرء في هذه الحياة أن يُختم له بتدبر القرآن ومعرفة حقيقة التقوىٰ والإصلاح، فتدبر القرآن عند تلك اللحظة يبعث القلب علىٰ الاقتداء بمثل أحوالهم رحمهم الله، والحرص علىٰ تحصيل شروط قبول العمل الصالح، والخوف من العُجب وحبطان العمل.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٨٧).
(٢) تفسير الطبري (٨/ ٣٢٧-٣٢٨).

إننا نرىٰ في هذه اللحظة العصيبة معلمًا مهمًّا من معالم إصلاح النفس بالتدبر عند السلف، وهو امتداده طوليًّا ليمتد مدىٰ الحياة، إنه إصلاح للنفس لا يتوقف حتىٰ لحظة الموت كما في هذا الأثر، فهو إصلاح أبدي يجعل المتدبر لا يفتر من إصلاح نفسه وتقويمه مدىٰ الدهر، فقد خلع عنه التدبر رداء العُجب والغرور، وأبصره بعيوب نفسه، فما يزال يجاهد نفسه في سبيل إصلاحها حتىٰ يتوفاه الله تعالىٰ.

وأما سرُّ هذه الدموع فلا نجد لها إفصاحًا أعظم من قول أبي الدرداء رضي الله عنه: (لأن أستيقن أن الله قد تقبل مني صلاةً واحدة أحب إلي من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧])[1].

فالميزان الحقيقي للأعمال هو قبولها عند الله جل جلاله، وبها تكون الكثرة، وهذا المعنىٰ إن كان مفهومًا من هذه القصة، فقد جاء منطوقًا في الأثر الذي أسنده الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ قتادة [ت: ١١٧] رحمه الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] قال: (**إنما قَلَّ ذِكْرُ المنافق؛ لأن الله لم يقبله، وكلُّ ما ردَّ اللهُ قليل، وكل ما قَبِل الله كثير**)[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٨٥) نقلاً عن ابن أبي حاتم.
(٢) تفسير الطبري (٧/ ٦١٤).

أوليس الله يقول حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾[البقرة: ١٢٧]. قال وُهيب بن الورد[ت: ١٣٥] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يا خليل الرحمن! ترفع قوائم بيت الرحمن، وأنت مشفق أن لا يتقبل منك)[1].

ليست العبرة بالكم (كم صليتَ وكم تصدقتَ) وإنما العبرة بالكيف (هل قبله الله؟) هل حققت شروط قبول العمل؟ شتان بين من يحمل هم العمل، وبين من يحمل هم قبول العمل؟ وإنما يدركها من بلغ المنازل، وخالط الإيمان بشاشة قلبه.

هذا هو المعيار الأساس للأعمال دقها وجلها، فمعيارها هو القبول عند الله تعالىٰ، وبه تكون الكثرة والقلة.

إنَّ هذا التدبر يجعلُ المؤمن ينظر إلىٰ روح العمل، وهو الإخلاص ويتعاهد نيته ويتفقد قلبه في العمل، وإنما يأتي الشيطان للعباد حين تغيب مثل الآثار عنهم، فينظرون إلىٰ صورة العمل، ويهملون روح العمل، وما أحوجنا للتذكير به في عصر بات فيه الناس يعملون ولا يتذوقون، وهنا في هذا الأثر بعضٌ مما ينشدونه، فإن هم أرادوا حلاوة العمل، فليُحسنوا البواطن، ويتعاهدوا السرائر.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٢٧).

كما أن فيه نزعًا للعجب من النفس وهو أهم علل النفس المهلكة، وفيه إشارة إلىٰ حرص السلف علىٰ تحذير الناس من سلوك مسلك المنافقين في قلة الذكر، وحرصهم علىٰ تعظيم الأعمال التي يتقبلها الله تعالىٰ، والحرص علىٰ حصول هذا القبول.

ولا تكمنُ السعادة في الحياة التي تنشدها أيها السعيد إلا بمراعاة هذا الميزان المهم وهو «هم الإخلاص والقبول»، وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية [ت: ٧٢٨] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالسعيد يخاف في أعماله أن لا يكون صادقًا في إخلاصه الدين لله، أو أن لا تكون موافقة لما أمر الله به علىٰ لسان رسوله؛ ولهذا كان السلف يخافون النفاق علىٰ أنفسهم، فذكر البخاري عن أبي العالية قال: أدركتُ ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه، ولهذا كانوا يستثنون فيقول أحدهم: أنا مؤمن إن شاء الله، ومثل هؤلاء يستغفرون الله مما علموه أو لم يعلموه من التقصير والتعدي، ويتوبون من ذلك)[١].



---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٢٥٧).

التبرم بأعمال الصادقين

افتتح الله فسطاط القرآن بالحديث عن أصناف الناس، وكان النصيب الأوفر من حديث البقرة في افتتاحيتها العظيمة عن الصنف الثالث المؤخر في الكلام المقدم في التحذير والإنذار.

ولا يزال الحديث عن المنافقين ممتدًّا في القرآن، ففي نهاية العشر الطوال تتمحور سورة التوبة في الحديث عنهم، يقول الحبر ابن عباس رضي الله عنهما: (التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل، ومنهم ومنهم، حتىٰ ظنوا أنها لن تبقي أحدًا منهم إلا ذكر فيها)[1]، إلىٰ أن نجد في المفصل وهو محكم القرآن سورة كاملة باسم «المنافقون».

وهذا الحديث المفصل عن المنافقين يجعلُ المتدبر لكتاب الله علىٰ علم بماضي المنافقين، قادرًا علىٰ استشراف مستقبلهم، وتلك بصيرةٌ لاَّ تتأتىٰ لغير متدبر القرآن العظيم.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب، رقم الأثر (٤٨٨٢).

وقد أسند الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ الحسن البصري [ت: ١١٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥] قال: (**الحمدُ للهِ بها، والحمدُ للهِ عليها، ما كان مؤمنٌ فيما مضىٰ، ولا مؤمنٌ فيما بَقِي، إلا وإلىٰ جانبه منافقٌ يكرَهُ عملَه**)[1].

فمن التاريخ انطلق رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ استشراف مستقبلهم، وهذا من عمق التدبر وفقه الناس؛ ذلك أن التاريخ يعيد نفسه، والناس هم الناس، فكما أن للذين ظلموا أصحابًا في غابر الأزمان فكذلك للمنافقين امتداد ماضٍ، فلا يهول المؤمن جِدَّة الأسماء والألقاب.

وهذا التدبر جاء ممزوجًا باستقراء للقرآن وتأمل في واقع الناس، فنرىٰ في تدبره استشرافًا لمستقبل الناس؛ غَيرَ أن المؤثر في تدبره هو ما استنبطه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن كرهَ العمل الصالح نفاقٌ، وصنيع المفسرين يُفهم أن مراد الحسن بعمل المؤمن هنا هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]، لكنَّ لفظه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرجح عموم عمل المؤمن، وأبرز ما يظهر فيه كرههم من أعمال المؤمن هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٥٠).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٩/ ٥٠)، تفسير الثعلبي (٤/ ١١٥)، تفسير ابن كثير (٣/ ٢١٥).

ولهذا المعنىٰ شواهد، ففي سورة التوبة نجد لمز المنافقين للصادقين ظاهرًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة: ٧٩].

والسخرية أمارة الكره، فحسب المرء من خذلان الله كره العمل الصالح بَلْه أن يقوم به، وهو صنيع المنافقين والكفار مدىٰ الدهر، وهذا الكره يتطور بتطور الزمان، ففي عصرنا نجد توظيف أهل الأهواء للتطور التقني في السخرية من أعمال الصالحين الصادقين، واستثمار الإعلام في إيصال خطاب كراهيتهم وبث شبهاتهم.

والمقصودُ من تعريف المؤمنين بخصال النفاق، تقويتهم وتثبيتهم، فلا يهنون عن الإيمان ولا تثبطهم سخرية المنافقين عن العمل الصالح، بل يمضون في طريقهم ويحتسبون الأذىٰ علىٰ العمل الصالح.

وقد نقل البِقَاعي [ت: ٨٨٥] عن الحرَالي [ت: ٦٣٨] **إشراقات مهمة حول معنىٰ أثر الحسن البصري** [ت: ١١٠] فقال: (ينظر المنافق إلىٰ ما يستسقط به فضائل أهل الفضل ويتعامىٰ عن محاسنهم، كما رُوِيَ أن الله يبغض التارك لحسنة المؤمن الآخذ لسيئته، والمؤمن الصادق يتغافل عن مساوئ أهل المساوئ، فكيف بمعايب أهل المحاسن! **ومِن أظهر علامات المنافق تبرُّمُه بأعمال الصادق**)[1].

---

(١) نظم الدرر (٨/ ٥٣٨).

إنَّ خطورةَ النفاق الخفي تكمن في كونه إنذارًا بمرض القلب، فإن لم يفطن لها المرء تطور المرض واستفحل نفاقًا ظاهرًا والعياذ بالله، إنها الخطوة الأولىٰ للشيطان ما لم يدفعها المرء بالمجاهدة فإنها تجر ما بعدها، وسلامة القلب أولىٰ بالعناية، وقد أفلح من جاهد نفسه، وزكىٰ قلبه، وفرح بأعمال الصادقين، وإنجازات الصالحين.



من أخلاق العظماء

من أعظم الأوسمة الفاخرة في هذه الدنيا الانتساب إلىٰ مدرسة الأنبياء العظماء، وارتماء الفكر في كمالات تلك الأرواح التي أرادها الله تعالىٰ أن تكون للبشرية مصابيح الهدىٰ ومشارق النور.

لم تعرف تلك المدرسة أروقةً محوطة ولا أسوارًا مشيدة، فكانت دروسها آيات للسائلين: ﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧] ودرجاتها مهداة للسالكين، وشهاداتها رحمة للعالمين.

تلك المدرسة عتيقة في أغوار التاريخ فهي أقدم مدرسة عرفتها البشرية ببعث آدم عليه السلام، وممتدة ثمارها اليافعة إلىٰ الأجيال حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها، فهي من أعظم ما ينفع الناس: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ومن الأصول الكبرىٰ لتلك الجامعة السماوية والمدرسة الربانية: تعليم «الأخلاق»، فكان حسن الأخلاق أصلًا عتيقًا في شرائع النبوات لم يدخله نسخ، ولم يتوجه إليه تقييد أو استثناء.

تجد صفحات مشرقة من محاسن الأخلاق، وإضاءات وهاجة في تهذيب النفوس، فما كان الأخلاق مقررًا اختياريًا في مدرسة النبوة، بل كان جزءًا من كينونة العقيدة، ممزوجًا بها حتىٰ سُمي الدين خُلقًا فقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويلها: (**إنك علىٰ دين عظيم، وهو الإسلام**)(١).

وتسمية الشيء ببعضه دليل علىٰ عظم هذا البعض وركنيته وأنه عماد من أعمدة هذا الأمر(٢).

إنَّه ما من محطة يعرضها لنا القرآن من نفحات هذه المدرسة إلا وبإزائها درس عظيم في الأخلاق والسلوك والمعاملة.

في موقف القيامة المهيب يُنبئ القرآن عن أعظم أخلاق الأنبياء، إنه رغم هول الموقف وفداحة الخطب تُشرق أخلاق الأنبياء شمسًا، فكانت هذه الأخلاق محل تدبر السلف ومقام استنباطهم، فقد أسند الإمام الطبري [ت: ٣١٠] إلىٰ قتادة [ت: ١١٧] رحمه الله في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١١٨﴾ [المائدة: ١١٨] قال رحمه الله: (**واللهِ ما كانوا [أي: الرسل] طعَّانين ولا لعَّانين!**)(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٥٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (١/ ٤٣٤)، تفسير البيضاوي (٢/ ١٦)، تفسير ابن جزي (١/ ١٥٢).

(٣) تفسير الطبري (٩/ ١٣٩).

وإنك ليحفك التعجب، وتغمرك الدهشة، فلا تدري أتعجب من وقوف قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ هذا الأدب النبوي الكريم؟ أم تعجب من هذا الأدب النبوي في خضم هذا الموقف العظيم؟!

ومما يلفت النظر هنا أن قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مقاصديًّا ويظهر عنايته رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالمقصد القرآني الكبير وهو تهذيب الأخلاق[1]، ونظير هذه الآية قول الخليل عليه السلام: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وجاء في وصف النبي الكريم ﷺ في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه: قال: لم يكن النبي ﷺ **سبَّابًا، ولا فحَّاشًا، ولا لعَّانًا**، كان يقول لأحدنا عند المَعْتَبَة: «مَا لَه تَرِبَ جَبِينُه»[2].

وحسبُكَ بها من شهادة، فإن أنسًا رضي الله عنه كان خادمه لعشر سنين، وأبلغ ما يكون الخلق مع الخدم ونحوهم مع من لا يرجو منهم الإنسان منفعة، وفي هذا الأثر للدعاة والمصلحين أن يكونوا علىٰ نهج الرسل في الرحمة والأدب والخُلُق واللطف، وبهذا يعظم التأثير وتعم البركة.

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور (١/ ٤٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشًا، رقم الحديث (٦٠٣١).

إنَّ الرسل وهم خيرة الخلق يعلمون البشرية كيفية التعامل مع الله والأدب معه جل في علاه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. والغَيرة والحُرقة علىٰ دين الله تعالىٰ ليست مبررًا للفحش والبذاءة والطعن، فلسنا أغير من أنبياء الله علىٰ دين الله ﷻ، وفرق بين من ينتصر لله ومن ينتصر لنفسه، فمن ينتصر لله فلن يبتذل مهما ابتذل خصومه، فـ«**ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللعَّان ولا الفاحش ولا البذيء**»[1].



(١) أخرجه الترمذي مرفوعًا، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في اللعنة، رقم الحديث (١٩٧٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٦٣٤).

مشاريع الضرار

بجوار مسجد قباء الشامخ المؤسس علىٰ التقوىٰ أقاموا كيانهم المتهافت، ظاهره مشروع خير وصلاح، وباطنه شرٌّ وإفساد.

غير أن النفاق لما كان ممتدًّا إلىٰ قيام الساعة كان لهذا المشروع امتداد وظهور عبر التاريخ بصور شتىٰ كما استنبطه التابعي الجليل شقيق بن سلمة [ت: بعد ٨٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأثر الذي أسنده إليه الإمام الطبري [ت: ٣١٠] في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ١٠٧] قال: **كلُّ مسجدٍ بُنِيَ ضِرارًا أو رياءً أو سمعةً، فإن أصلَه ينتهي إلىٰ المسجد الذي بُنِيَ ضِرَارًا**[١].

وهنا نقرأ شيئًا من سرِّ تخليد القرآن لمشروع الضرار الأول: مسجد الضرار، لأنه أصل كما يقول شقيق [ت: بعد ٨٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسيكون منه فروع وامتداد، وهذا من نور البصيرة التي يمنحها الله علىٰ صاحب القرآن؛ استشراف المستقبل وفق منظار الإيمان وبصيرة القلب.

---

(١) تفسير الطبري (١١/ ٦٨٠).

وهذا التنبيه القرآني والاستنباط السلفي إلىٰ خطورة مشاريع الضرار وأهلها علىٰ المجتمعات جَعَلَ الإمام ابن القيم [ت: ٧٥١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (كادَ القرآن أن يكون كله في شأنهم؛ لكثرتهم علىٰ ظهر الأرض وفي أجواف القبور)[١].

نعم هُدم مسجد الضرار الأول؛ لكن فروعه ما زالت تبث سمومها وتنشر خبثها، أنشطة متعددة ظاهرها نصرة الإسلام وباطنها تشويه صورة الإسلام الخالدة: مؤتمرات الضرار، وجمعيات الضرار، وكتب الضرار، وأبحاث الضرار! اختلفت السبل والغاية واحدة!

إنها مشاريع متجددة بوسائل متنوعة لا تزال تتجدد في كل عصر بألوان شتىٰ.

إنَّ لكل مشروع ضار مكونات ومقومات، يتفق فيها مسجد الضرار مع منتدىٰ الضرار مع مؤتمر الضرار، مقومان أزليان ثابتان لا يختلفان ولا يتغيران مع الزمن ولا يخفيان علىٰ من نوَّر الله بصيرته وأشرق قلبه بآي الكتاب، وهذان المقومان يجتمعان في الآتي:

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٦٤).

١. **المقصود الضار**: فحيث كان القصد غير مشروع وهو الإضرار بدين الله أو المسلمين فهو مشروع ضرار، ولو كان هذا بصورة أحب البقاع إلىٰ الله: «المسجد».

٢. **التلون الخبيث**: فيكون ظاهره مشروعًا، كسائر مشاريع الضرار في أزمنة الأمة، تسترًا بهذا الظاهر للوصول إلىٰ الغرض الخبيث.

ومن هذين المقومين نستطيع أن نعرف مشاريع الضرار: **بأنها مشاريع دينية تخفي وراءها غرضًا غير مشروع، وهو تشويه الدين الإسلامي الوسطي الصحيح**، وكل مشروع حوىٰ هذين المقومين فهو مشروع غير مشروع وينبغي الحذر منه؛ لأن الله ﷻ لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا، وللصواب قاصدًا، يقول ابن القيم [ت: ٧٥١]: (رياء المرائين صيَّر مسجد الضرار مزبلة وخربة لا تقُم فيه أبدًا، وإخلاص المخلصين رفع قدر التفث)[١].

ففي هذه العبارة الآسرة يضع رَحِمَهُ ٱللَّهُ معيار العمل الحقيقي، فقوامه عند الله بما في القلوب وليس بالكم والكيف، فالإخلاص يرفع قدر التفث، التفث الذي هو الأخذ من شعر البدن في المناسك، فكأنه يشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ تنويه الله به في قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ

---

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم (٣/ ٢٣٧).

﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحج: ٢٩] فهو يقرِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العبرة ليست في ضخامة المشاريع وإنما في منبعها ومقاصدها.

وخير من يشرح عبارته هذه هو نفسه، حيثُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في موضع آخر: (النية رأس الأمر وعموده وأساسه وأصله الذي عليه يُبنىٰ، فإنها روح العمل وقائده وسائقه، والعمل تابعٌ لها وعليها يُبنىٰ، يصح بصحتها ويفسد بفسادها، وبها يُستجلب التوفيق وبعدمها يحصل الخذلان وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا والآخرة)[1].

إذن أيها المؤمن هما مشروعان لا ثالث لهما: إما مشروع التقوىٰ أو مشروع الضرار، والمعوَّل هي المقاصد والأغراض، فشتان بين التأسيس علىٰ التقوىٰ، والتأسيس علىٰ الإضرار والإرصاد، أجارنا الله وإياك من الفساد والإفساد.



(١) أعلام الموقعين، ابن القيم (٦/ ١٠٦).

المرأةُ الكاملة

عندما تتحدىٰ امرأة أعتىٰ رجل وأقوىٰ مملكة، امرأة وحيدة في مقابل أعظم إمبراطورية آنذاك! هل لك أخي الكريم أن تتصور هذه المواجهة؟! بل إنها ليست امرأة وحسْب بل زوجةُ كذلك! لكنها لم تبالِ بأعراف الناس! ولم ترضخ لضغوط المجتمع، ولم تتنازل أمام زينة القصر وبهرجة الحياة الباذخة! وهكذا الروح إذا تعلقت بالله استسهلت كل الصعاب في سبيل الدين والعقيدة.

أسند الإمام الطبري [ت: ٣١٠] عند قوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١] إلىٰ قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: **(وكان أعتىٰ أهل الأرض علىٰ الله، وأبعده من الله، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، لتعلموا أن الله حَكَمٌ عدل، لا يؤاخذ عبده إلا بذنبه)**[١].

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١١٥-١١٦).

هكذا تكون قراءة قصص القرآن قراءة مقاصدية، والتي من خلالها استنبط قتادة [ت: ١١٧] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ هذه الهداية الإيمانية، ففي الأثر نجد قَطعًا لأطماع العصاة رجاء انتفاعه بصلاح قرابته، فلا رابطة أقوىٰ من البنوة والأبوة والزوجية، وما ضرَّ امرأة فرعون فساد زوجها، وكذلك إبراهيم عليه السلام مع أبيه ونوح عليه السلام مع زوجه وابنه كما قال تعالىٰ لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦][1].

وقد كان هذا من أسباب فشوِّ الفساد في الأمة: الاتكال علىٰ صلاح القرابة، فهو بُعدٌ إيماني مهم له في حياة الأمة عظيم الأثر، ولقد بلغ هذا السبب منعطفًا خطيرًا في أذهان الناس فوضعوا فيه الأحاديث، ولهذا قال ابن كثير [ت: ٧٧٤] عند تفسير الآية: (وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء علىٰ ضعف الحديث الذي يأثره كثير من الناس: من أكل مع مغفور له غفر له. وهذا الحديث لا أصل له، وإنما يُروىٰ هذا عن بعض الصالحين أنه رأىٰ النبي ﷺ في المنام فقال: يا رسول الله، أنت قلت: من أكل مع مغفور له غفر؟ قال: لا، ولكني الآن أقوله)[2].

---

(١) ينظر: تفسير الثعلبي (٢٧/ ٦٤)، تفسير البغوي (٥/ ١٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ١٧١).

ولم يقتصر هذا السبب علىٰ فساد دين الأمة بل امتدَّ سوءته فكان سببًا من أسباب تخلف الأمة في دنياها حتىٰ شاعت البطالة، وحب الدعة والراحة ارتكانًا إلىٰ أمجاد الأجداد وارتهانًا بجاههم وصلاحهم.

وفيه كذلك قطع لليأس عن المصلحين والصالحين، بأن معاصي غيرهم لا تضرهم عند طاعاتهم إذا أدوا ما عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند قدرتهم علىٰ ذلك[1]، وإذا كان الله لا يؤاخذ عبده إلا بذنبه؛ فمقتضاه ألا نحاكم الناس إلىٰ جناية آبائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

هذا الشموخ الذي سطرته امرأة فرعون وخلده القرآن ترغيبٌ لهم في التمسك بالطاعة والثبات علىٰ الدين لا سيما في أزمنة الغربة، فقد تكون مؤمنة بين قوم كافرين، أو صالحة في بيت طالح وهكذا.

يقول القرطبي [ت: ٦٧١] رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقيل: هذا حث للمؤمنين علىٰ الصبر في الشدة، أي: لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت علىٰ أذىٰ فرعون)[2].

---

(١) تفسير الثعلبي (٩/ ٣٥٢).
(٢) تفسير القرطبي (١٨/ ٢٠٢-٢٠٣).

ولتعلم أيها المؤمن وأيتها المؤمنة أن الالتجاء إلىٰ الله تعالىٰ عند المحن وسؤاله الخلاص منها من سنن الصالحين والأنبياء كما يقوله أبو حيان [ت: ٧٤٥] في تفسيره[1].

وحقًّا ما قاله، فأنىٰ لهذه المرأة الضعيفة أن تصمد في وجه أعتىٰ أهل الأرض علىٰ الله لولا التجاؤها إلىٰ الله: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: ١١]. كيف لها ألا تطيش في مثل هذه المحن الكبرىٰ التي تطيش فيها عقول أولي النُّهىٰ والأحلام؟!

وتأملوا حين أحاط البلاء بنبي الله يوسف عليه السلام كان مفتاح الخلاص له: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: ٣٣].

إنَّ مكمن الفرق بين الثبات والتلون هو الدعاء وسؤال الخلاص، فما ثبت من ثبت إلا لصدق التجائه إلىٰ الله تعالىٰ، وما ركب الموجة من ركب إلا لاتكاله علىٰ نفسه، والله سبحانه وتعالىٰ حكم عدل لا يؤاخذ عبده إلا بذنبه كما أشار إليه قتادة في أثره الإيماني الجميل.

---

(١) ينظر: تفسير أبي حيان (١٠/ ٢١٦).

وبهذا الثبات الشامخ نالت هذه المرأة أعظم الأوسمة النبوية ألا وهو الثناء النبوي عليها بالكمال الوارد في حديث أبي موسىٰ الأشعري ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون**»[1].

فرضي الله عن كل امرأة صبرت وصابرت، وجدَّت واجتهدت في سبيل العقيدة والدين والعلم والتعليم، وكانت قدوة صالحة في بيتها ومحيطها ومجتمعها، وذلك هو الكمال المنشود والفلاح المورود.



(١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب الثريد، رقم الحديث (٥٤١٨)، وأخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، رقم الحديث (٢٤٣١).

وما أدراك ما توسد القرآن؟!

في هدأة الليل وسكونه يتجدد للمؤمن حياة جديدة، حيث تنفض عن روحه صغائر المشاعر والشواغل؛ لتستمد الزاد الحقيقي لرحلة الحياة المضنية.

ولما كان القرآن العظيم هو النور في تلك الحياة كان في حق أهله من الخصائص والأحكام والتفضيل والبركات ما لا يحصل لغيرهم.

أسند الإمام الطبري [ت: ٣١٠] **في قوله تعالىٰ:** ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[المزمل: ٢٠] **إلىٰ أبي رجاء البصري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال: (قلتُ للحسن البصري** [ت: ١١٠]**: يا أبا سعيد! ما تقولُ في رجلٍ قد اسْتَظْهَر القرآنَ كلَّه عن ظهرِ قلبه، فلا يقومُ به، إنما يُصَلِّي المكتوبة؟ قال: يتَوَسَّدُ القرآن!**[1] **لعن اللهُ ذاك، قال الله جلَّ ذكره للعبدِ الصالح:**

---

(١) يتوسَّد القرآن: يراد به هنا: أنه ينام ولا يقرأ القرآن مع أنه حافظٌ للقرآن، فإذا نام لم يكن معه من القرآن شيء. ينظر: تهذيب اللغة، الأزهري (١٣/ ٢٨) مادة (وَسَدَ).

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ [يوسف: ٦٨] ﴿ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ ﴾ [الأنعام: ٩١] **قلتُ: يا أبا سعيد، قال الله:** ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾ **قال: نعم ولو خمسين آية)**[1].

وتظهر حكمة الأثر في قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يتوسد القرآن) بتوضيح الإمام ابن كثير [ت: ٧٧٤]، حيث قال بعد إيراده للأثر: (وهذا ظاهرٌ من مذهب الحسن البصري: أنه كان يرىٰ حقًّا واجبًا علىٰ حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل)[2].

فنعمة القرآن تستوجب الشكر، وهذا يظهر من استدلاله بقوله تعالىٰ: ﴿ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ ﴾ [الأنعام: ٩١] وشكر نعمة القرآن تكون بالعمل به، وذلك من استدلاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ [يوسف: ٦٨] وهو في هذا السياق يعني: العمل بالقرآن الكريم.

ومن العمل بالقرآن: القيام به في جوف الليل، وهذا مفهوم من معنىٰ كلمة: (يتوسَّد القرآن)، فإن معناه في هذا السياق الذم، فكأن حِفْظَ القرآن لدىٰ الحسن البصري لا يعدل شيئًا إذا لم يقُم المرء به في جوف الليل ويعمل به في النهار، فإن القرآن إنما يشفع لمن قام به كما قال ابن رجب [ت: ٧٩٥] رَحِمَهُ ٱللَّهُ[3].

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٩٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٥٩).

(٣) ينظر: لطائف المعارف، ابن رجب (ص١٧٢).

ولقد قال الله تبارك وتعالىٰ في شأن أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: ٦٨]. وأعظم إقامة للقرآن القيام به في جوف الليل والعمل به.

وهذا الأثر في الحقيقة يتسق غاية الاتساق مع مفهوم الحسن [ت: ١١٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتدبر حين قال: (وما تدبُّر آياتِه إلا اتباعُه بعلمِه، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتىٰ أن أحدهم ليقول: والله لقد قرأتُ القرآنَ كلَّه وما أسقط منه حرفًا واحدًا وقد أسقطه كله، ما ترىٰ له في القرآن من خلق ولا عمل!)[1].

إنَّ قارئ القرآن العارف عظمته حين يعرف أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ علىٰ الرغم من أعباء الخلافة وضخامة مهامها لم يجعلها رخصة لترك قيام الليل، حتىٰ قالت امرأته يوم الدار: (اقتلوه أو دعوه فوالله لقد كان يحيي الليل بالقرآن في ركعة)[2]، وكيف لا يكون هذا حاله، وهو الذي اجتهد في جمع القرآن الكريم؟ وكيف لا يكون هذا حاله وهو القائل: (لو أن قلوبَنا طَهُرَت ما شبعنا من كلام ربنا)[3].

---

(١) مصنف عبدالرزاق، كتاب فضائل القرآن، باب تعاهد القرآن (٣/ ٣٦٣).
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير (٧/ ٢١٧).
(٣) المرجع السابق (٧/ ٢١٧).

ولم يكن عثمان فريدًا في هذا النهج الرباني بل كان هذا حالهم جميعًا، يقول الحسن بن علي ﷺ: (إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار)[1]، وتأمل معي أيها المبارك سرَّ الاقتران بين عمل الليل وعمل النهار، فللقيام في الليل صدىً في عمل النهار، وللإحسان في عبادة الله انعكاس علىٰ حسن خلق المرء مع الناس.

والمحافظة علىٰ ذلك هي وصية نبينا ﷺ لأهل القرآن حيث قال في الحديث المشهور الذي رواه علي بن أبي طالب ﷺ: «**يا أهل القرآن، أَوْتِرُوا، فإن الله وِتْر، يحب الوتر**»[2].

إنَّ آية المزمل: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ وأثر الحسن البصري [ت: ١١٠] الآنف وآيات الحث علىٰ قيام الليل عمومًا= لتشرق في قلب صاحب القرآن وتناديه أن الله ﷻ قد خصك بنعمة عظيمة يغبطك عليها غيرك، والله ﷻ خاطبك من قيام الليل بما لم

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن، النووي (ص٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب تفريع أبواب الوتر، رقم الحديث (١٤١٦)، وأخرجه الترمذي، أبواب الوتر، باب ما جاء أن الوتر ليس بحتم، رقم الحديث (٤٥٣)، وقال: (حديث علي حديث حسن)، وأخرجه ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في الوتر، رقم الحديث (١١٦٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٣٧٥).

يخاطب به غيرك[1]، وإنَّ الانتساب للقرآن لا بد له من بينة وإلا كان مجرَّد دعوىٰ، وأعظم البينات هو العمل بالقرآن، ومن أعظم ذلك: القيام به في جوف الليل؛ فهنيئًا للقانتين الساجدين آناء الليل يحذرون الآخرة ويرجون رحمة ربهم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].



(١) ينظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣/ ٨٤).

هل مِنْ طالبِ علمٍ فيُعان عليه؟!

إلىٰ أرض الكنانة تاقت نفوسهم لطلب العلم فارتحلوا إليها من شرق العالم الإسلامي، كانت «مصر» علىٰ موعد بكبار علماء الدين: محمد بن جرير الطبري [ت: ٣١٠] ومحمد بن إسحاق بن خزيمة [ت: ٣١١] ومحمد بن هارون الروياني [ت: ٣٠٧] ومحمد بن نصر المروزي [ت: ٢٩٤] يمموا وجوههم إليها طلبًا للعلم أثمن مطلب وأغلىٰ مقصود، وفي مصر كانت الحكاية.

نفد قوتهم وجاع الملأ الكرام، اجتمعت عليهم الكرب: غربة الأهل وغربة الوطن وغربة الحاجة.

اجتمع السادة الكرام في أحد البيوت جائعين مغتربين حائرين، وكأن حالهم صوره ابن عباس في صورة موسىٰ عليه السلام عند قوله تعالىٰ: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص: ٢٤].

نقل ابن عطية [ت: ٥٤٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما قولَه: (وكان قد بلغ به الجوع واخضر لونه من أكل البقل، وضعف حتىٰ

لصق بطنه بظهره، ورُئِيتَ خضرة البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق يومئذ علىٰ الله). زاد ابن عطية [ت: ٥٤٢]: (ورُوِي أنه لم يصل إلىٰ مَدْين حتىٰ سقط باطن قدمه، **وفي هذا معتبر وحاكم بهوان الدنيا علىٰ الله تعالىٰ**)[١]، وعلىٰ درب الأنبياء سار هؤلاء العلماء.

لقد بلغ بهم الجوع مبلغًا أن اقترعوا علىٰ أن من خرجت عليه القُرعة يسأل لهم، وهم الكرام في قومهم، المعروفون في مجتمعهم، ولكنها الغربة والجوع الذي تعوَّذ منه محمد ﷺ حين قال: «**اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع**»[٢].

خرجت القُرعة علىٰ الإمام محمد بن خزيمة [ت: ٣١١] وقد كانت نفوسهم أعز من أن تسأل غير الله تعالىٰ، فقال: أمهلوني حتىٰ أُصلي! وبينما هو في صلاته وإلحاحه ودعائه يأتي الفرج! يدق الباب فإذا برسول الأمير، يفتحون له الباب: يسأل: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هو ذا، فأخرج صرة فيها خمسون دينارًا، فدفعها إليه، ثم قال: وأيكم محمد بن جرير؟ فأعطاه خمسين دينارًا، وكذلك

---

(١) تفسير ابن عطية (٤/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود، باب تفريع أبواب الوتر، باب في الاستعاذة، رقم الحديث (١٥٤٧)، وأخرجه النسائي في كتاب الاستعاذة، الاستعاذة من الجوع، رقم الحديث (٥٤٦٨)، وأخرجه ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب التعوذ من الجوع، رقم الحديث (٣٣٥٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٥٥).

للروياني، وابن خزيمة، ثم قال: إن الأمير كان قائلًا بالأمس، فرأىٰ في المنام أن المحامد [جامع اسم هؤلاء الأربعة] جياع قد طووا كشحهم[1]، فأنفذ إليكم هذه الصرر، وأقسم عليكم: إذا نفدت، فابعثوا إليَّ أحدكم[2].

والعجب أخي المبارك أن يكون أحد هؤلاء العلماء الإمام الطبري [ت: ٣١٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو محور مشارقنا في هذا الكتاب، وأحد مواردنا لهذه الآثار المشرقة لهؤلاء السلف الكرام وعيشهم مع آي الكتاب وأسراره، ولقد أسند رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ مَطَر الوراق [ت: ١٢٩] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧] قال: (هلْ مِنْ طَالِب علم فيُعَان عليه؟!)[3].

وطالب العلم حقيق بهذه الإعانة الربانية فإنما العلم يحصل بتعب ونصب، وأفضل الأعمال أحزمها[4]، فمن تحمل المشقة في طلبه أعانه الله، ومن إعانة الله له تسهيل سبل الجنة له كما جاء في

---

(١) كشحهم: خصورهم. ينظر: مقاييس اللغة لابن فارس (٥/ ١٨٣)، مادة (كَشَحَ).

(٢) أوردها الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢/ ٥٤٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٢/ ١٩٣)، والحموي في معجم الأدباء (٦/ ٢٤٤٥)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٧٠-٢٧١).

(٣) تفسير الطبري (٢٢/ ١٣١).

(٤) ينظر: فيض القدير، المناوي (٦/ ١٥٤).

الحديث: «**من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا من طرق الجنة**»[1].

قال الطيبي [ت: ٧٤٣]: (التنكير فيه للشيوع، أي: تسبَّب بسببٍ، أي سببٍ كان، من مفارقة الأوطان، والضرب في البلدان، والإنفاق فيه، والتعلم والتعليم، والتصنيف، والكدح فيه، مما لا يحصىٰ كثرةً)[2].

فهداية الأثر دعوة الأمة إلىٰ طلب علم القرآن بصدق وإخلاص، كاشفة الغمة عن طلاب العلم بتذكيرهم بأعظم إعانة لهم علىٰ قصد طريق العلم وهو إعانة الله لهم، إذ علىٰ قدر المؤونة تكون المعونة، فلما كان طلب العلم عظيمًا شاقًّا محفوفًا بالمخاطر والمكاره عظمت معونة الله لأهله، وفي هذا تحفيز عظيم لطالب العلم.

ولقد كان لهذه الآثار أعظم الأثر في الأمة، فغدت الرحلة في طلب التفسير والحديث عنوان أهل العلم، قلَّ أن تجد عالمًا لم يرحل، وانظر إلىٰ رحلات أهل الأندلس وبلدان الشرق والغرب لتعلم أن هذا العلم نفيس وأنه لا يُنال براحة الجسد.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب العلم، باب الحث علىٰ طلب العلم، رقم الحديث (٣٦٤١)، وأخرجه الترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة، رقم الحديث (٢٦٨٢)، وأخرجه ابن ماجه، افتتاح الكتاب، باب فضل العلماء، رقم الحديث (٢٢٣)، من حديث أبي الدرداء ﷺ وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٣٨).

(٢) شرح المشكاة للطبي (٢/ ٦٦٦).

وبنحو هذا الأثر تظافرت إشارات الآيات: قيل لحماد بن زيد [ت: ١٧٩]: يا أبا إسماعيل، هل ذكر الله تعالىٰ أصحاب الحديث في القرآن؟ فقال: نعم، ألم تسمع إلىٰ قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهذا في كل من رحل في طلب العلم والفقه، ورجع به إلىٰ من وراءه فعلمه إياه)[١]، ونِعْمَ سفراء البلاد: طلاب العلم وأهله.

ومن مشارق القصة ودروسها أن فيها تدبرًا عمليًا لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] فإن ما أصاب الأئمة الكرام من نفاد الزاد والاغتراب لهو من بلاءات الدنيا التي يُستعان فيها بالصبر والصلاة.

فإن قلتَ أيها المتدبر: فما وجه استعانتهم بالصلاة علىٰ مصائب الدنيا؟

قيل: إن فيها تلاوة كتاب الله، المزهِّد في الدنيا والمرغِّب في الآخرة، ففي الاعتبار بها معونة لأهل الطاعة علىٰ الجد، كما روي عن نبينا ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلىٰ الصلاة[٢].

---

(١) الرحلة في طلب الحديث، الخطيب البغدادي (ص٨٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١/ ٦١٨).

فليعلم طالب العلم علم اليقين أن الإخلاص والاجتهاد في العبادة وتعظيم قدر القرآن والصلاة= أعظم إعانة علىٰ فهم القرآن والتلذذ بمعرفة العلم، والصلاة أعظم زاد له في طلب العلم الذي هو طريق للإمامة في الدين والدنيا:

أَبَا بكرٍ دعوتكَ لَو أجبتا
إِلى مَا فِيهِ حظك إِن عقلتا
إِلَى علم تكون بِهِ إِمامًا
مُطاعًا إِن نهيت وَإِن أمرتا[1]

اللهم لا تُعقنا عن العلم بعائق، ولا تمنعنا عنه بمانع[2].



(١) ديوان أبي إسحاق الإلبيري (ص٢٦).
(٢) نقله السبكي عن والد إمام الحرمين في طبقات الشافعية الكبرىٰ (٥/ ٧٤).

مسكُ المشارق

صَدَقَ من قال: (**إنَّ هذا القرآن لا تفنىٰ عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تنكشف الظلمات إلا به!**)[1]. وما سبق من هذه الإشراقات أيها القارئ الكريم بمثابة أمثلة وإشراقات من القرآن الكريم تمسكُ بيد العبد للدخول في عالم الحياة الحقيقي، وهي دعوةٌ لإكمال المسيرة مع مشارق آي الذكر الحكيم في ظلال أقوال السلف الكرام؛ كي تكون نبراسَ حياة ومشروع عمل وحياة أمة.

لقد كانت البداءة بأثر مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في: **تقارب القلوب!** ليكون تقارب قلوبنا علىٰ مأدبة القرآن الكريم، ثم تكشفت عن النفس آصار الكروب في أثر الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **لن يغلب عسر يسرين!**

ويعودُ المطاف بعد ذلك إلىٰ تذكية الانتماء للدين اعتزازًا وفخرًا مع: **الشريعة كلها صلاح!** وللنخبة رواد الأمة وقبطانها رسالة نصح وتذكر من السلف في مقالة: **صلاح القدوات!**

---

(١) ينظر: ربيع الأبرار، الزمخشري (٢/ ١٠٠).

بعدها تقطف النفس من أوابد الفاروق في: **وعظ الكبار!** فتجني أثره وتجد نفعه في: **القلب النقي والصوت الخفي!**

ثم تمطرُ علىٰ جدب النفوس وقحط العيون: **غيثُ القلوب!** فتعلو راية الإيمان، وتنتكس راية البدعة في أثر سفيان: **صاحبُ كلِّ بدعةٍ ذليل!**

وكما تفرح الأرض بالمطر كذلك تفرح قلوب المؤمنين بغيث القلوب في: **الفرح بالقرآن**، ثم تستظل النفس من وهج الحياة ولهيبها بالإيمان في **مرفأ الأمان** حيث الأمان الذي لا خوف معه ولا حزن.. وهكذا تتابع المسيرة بتنوع وتكامل مع الشريعة والحياة؛ ثم تركب النفس قارب النجاة بطلب العلم في نداء مَطَر الورَّاق: **هل من طالب علم فيُعان عليه؟!**

إنَّ هذه المشاركة دعوةٌ إلىٰ مزيد من التدبر والتأمل في آيات الله تعالىٰ في الكون والأنفس والوحي والحياة.. ودعوةٌ إلىٰ الاجتهاد في تبليغ مقاصد القرآن وأنوار الذكر الحكيم للبشرية أجمع.. ودعوةٌ للمزيد في تكاتف الجهود المؤسسية والفردية في تصحيح المفاهيم، وبناء الوعي علىٰ منهاج مشارق الذكر الحكيم.

وفي الختام؛ فإن تقريب هدايات القرآن شرفٌ يُفاخرُ به، وخدمة يتُقربُ بها، وكما قال ابن عاشور [ت: ١٣٩٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ختام تفسيره متحدثًا عن هذا الشرف: (**حقيقٌ بأن يخدم سعيًا على الرأس!**)(١).

ورحم الله من أعان بنصح أو تسديدٍ أو إرشاد، فالمسلمون بخير ما تناصحوا.

فاللهم استعملنا في طاعتك، واجعل هذه الورقات مباركةً على راقمها وقارئها، واختم لنا بخير، واجعل عواقب أمورنا إلى خير، وارزقنا شكرًا يرضيك، وخُلُقًا نعيش به في الناس، وعقلًا تنفعنا به يا رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



---

(١) تفسير ابن عاشور (٣٠/ ٦٣٦).

مواردُ المشارق

١. الإتقان في علوم القرآن، عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٢. الأحكام السلطانية، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار الحديث، القاهرة.

٣. أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٤. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥. الإخلاص والنية، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، حققه وعلق عليه: إياد خالد الطباع، الناشر: دار البشائر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

٦. الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبدالله (المتوفىٰ: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٧. الأذكار، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي (المتوفىٰ: ٦٧٦هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط رَحِمَهُ اللَّهُ، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٨. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفىٰ: ١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي-بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٩. الاستقامة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ.

١٠. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفىٰ: ٤٦٣هـ)، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١١. أعلام الموقعين عن رب العالمين، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ)، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣هـ.

١٢. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد-المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٣. الأوائـل، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: ٣٩٥هـ)، الناشر: دار البشير، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٤. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، سنة النشر: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٥. بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٦. البرهان في علوم القرآن، أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.

١٧. البناية شرح الهداية، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (المتوفى: ٨٥٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية-بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٨. تاج العروس من جواهر القاموس، محمَّد بن محمَّد بن عبد الرزَّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقَّب بمرتضىٰ، الزَّبيدي (المتوفىٰ: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

١٩. تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفىٰ: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي-بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢٠. تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفىٰ: ٥٧١هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٢١. التبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي (المتوفىٰ: ٦٧٦هـ)، حققه وعلق عليه: محمد الحجار، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان.

٢٢. تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي، عثمان بن علي بن محجن البارعي، فخر الدين الزيلعي الحنفي (المتوفىٰ: ٧٤٣هـ)، الحاشية: شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يونس بن إسماعيل بن يونس الشلبي (المتوفىٰ: ١٠٢١هـ)، الناشر: المطبعة الكبرىٰ الأميرية- بولاق، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٣١٣هـ.

٢٣. تفسير ابن أبي حاتم= تفسير القرآن العظيم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفىٰ: ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفىٰ الباز -المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة -١٤١٩هـ.

٢٤. تفسير ابن جزي= التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفىٰ: ٧٤١هـ)، المحقق: د. عبدالله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم-بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ.

٢٥. تفسير ابن عاشور= التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفىٰ: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر -تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

٢٦. تفسير ابن عطية= المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفىٰ: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

٢٧. تفسير ابن كثير= تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٢٨. تفسير أبي حيان= البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفىٰ: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر -بيروت، سنة النشر: ١٤٢٠هـ.

٢٩. تفسير البغوي= معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفىٰ: ٥١٠هـ)، المحقق: عبدالرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ.

٣٠. تفسير البيضاوي= أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفىٰ: ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة الأولىٰ/ ١٤١٨هـ.

٣١. تفسير الثعلبي= الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن إبراهيم الثعلبي (المتوفىٰ: ٤٢٧هـ)، أشرف علىٰ إخراجه: د. صلاح باعثمان، د. حسن الغزالي، أ. د. زيد مهارش، أ. د. أمين باشه، تحقيق: عدد من الباحثين (٢١)، الناشر: دار التفسير، جدة -المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.

٣٢. تفسير الرازي= التفسير الكبير= مفاتيح الغيب، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفىٰ: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٣٣. تفسير الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفىٰ: ٥٠٢هـ)، جزء ١: المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق ودراسة: د. محمد عبدالعزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب- جامعة طنطا، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، جزء ٢، ٣: من أول سورة آل عمران -وحتىٰ الآية ١١٣ من سورة النساء،

تحقيق ودراسة: د. عادل بن علي الشِّدِي، دار النشر: دار الوطن -الرياض، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، جزء ٤، ٥: (من الآية ١١٤ من سورة النساء -وحتىٰ آخر سورة المائدة)، تحقيق ودراسة: د. هند بنت محمد بن زاهد سردار، الناشر: كلية الدعوة وأصول الدين -جامعة أم القرىٰ، الطبعة الأولىٰ: ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٣٤. تفسير الزمخشري= الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جارالله (المتوفىٰ: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي -بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٣٥. تفسير الشنقيطي= أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي (المتوفىٰ: ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت -لبنان، عام النشر: ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٣٦. تفسير الطبري= جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفىٰ: ٣١٠هـ)، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبدالسند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٣٧. تفسير القرطبي= الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفىٰ: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية -القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م..

٣٨. تفسير الماوردي= النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفىٰ: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت/ لبنان.

٣٩. تفسير القرآن، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (المتوفىٰ: ٣١٩هـ)، حققه وعلق عليه الدكتور: سعد بن محمد السعد، دار النشر: دار المآثر -المدينة النبوية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٤٠. تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين، محيي الدين أبو زكريا أحمد بن إبراهيم بن النحاس الدمشقي (المتوفىٰ: ٨١٤هـ)، حققه وعلق عليه: عماد الدين عباس سعيد، إشراف: المكتب السلفي لتحقيق التراث، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٧هـ.

٤١. تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفىٰ: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م.

٤٢. جامع الرسائل، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ)، المحقق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء -الرياض، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٤٣. جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفىٰ: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٤٤. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفىٰ: ٧٢٨هـ)، تحقيق: علي بن حسن -عبد العزيز بن إبراهيم -حمدان بن محمد، الناشر: دار العاصمة، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

٤٥. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني (المتوفىٰ: ٤٣٠هـ)، نشر: السعادة -بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٤٦. الدر المنثور، عبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفىٰ: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر -بيروت.

٤٧. الدرر السنية في الأجوبة النجدية، علماء نجد الأعلام، المحقق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة السادسة، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٤٨. ديوان أبي إسحاق الإلبيري، إبراهيم بن مسعود بن سعيد، أبو إسحاق التُّجيبي الإلبِيري (المتوفىٰ: ٤٦٠هـ)، المحقق: د. محمد رضوان الداية، الناشر: دار قتيبة - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٤٩. الرحلة في طلب الحديث، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفىٰ: ٤٦٣هـ)، المحقق: نور الدين عتر، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٥هـ.

٥٠. روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفىٰ: ٧٩٥هـ)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار العاصمة -المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٥١. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت -مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٥٢. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفىٰ: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولىٰ.

٥٣. سنن ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (المتوفىٰ: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية -فيصل عيسىٰ البابي الحلبي.

٥٤. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفىٰ: ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبدالحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا -بيروت.

٥٥. سنن الترمذي، محمد بن عيسىٰ بن سورة بن موسىٰ بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسىٰ (المتوفىٰ: ٢٧٩هـ)، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي-بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨م.

٥٦. سير أعـلام النبلاء، شمس الدين أبـو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٥٧. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ(الكاشف عن حقائق السنن)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (ت: ٧٤٣هـ)، المحقق: د. عبدالحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة -الرياض)، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٥٨. شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦هـ.

٥٩. شرح صحيح البخاري لابن بطال، ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبدالملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد -السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٦٠. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبـو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي -الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٦١. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفىٰ: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين -بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

٦٢. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبدالله (المتوفىٰ: ٢٥٦هـ)، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٨ ه-١٩٩٧م.

٦٣. صحيح البخاري= الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

٦٤. صحيح الترغيب والترهيب، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفىٰ: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف -الرياض، الطبعة الخامسة.

٦٥. صحيح مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلىٰ رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفىٰ: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦٦. صيد الخاطر، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفىٰ: ٥٩٧هـ)، بعناية: حسن المساحي سويدان، الناشر: دار القلم - دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٦٧. ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفىٰ: ١٤٢٠هـ)، أشرف علىٰ طباعته والتعليق عليه: زهير الشاويش، بتكليف: من مكتب التربية العربي لدول الخليج -الرياض، توزيع: المكتب الإسلامي -بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٦٨. طبقات الشافعية الكبرىٰ، عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفىٰ: ٧٧١هـ)، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٦٩. طرح التثريب في شرح التقريب، أبو الفضل زين الدين عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفىٰ: ٨٠٦هـ)، أكمله ابنه: أحمد بن عبدالرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (المتوفىٰ: ٨٢٦هـ)، الناشر: الطبعة المصرية القديمة.

٧٠. طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ)، الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٤هـ.

٧١. عادات القرآن الأسلوبية دراسة تطبيقية، راشد بن حمود بن راشد الثنيان، نشر: دار التدمرية، الجمعية السعودية للقرآن وعلومه (تبيان)، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٢هـ.

٧٢. عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، أبو بكر بن العربي المالكي، المحقق: جمال مرعشلي، الناشر: دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، الطبعة الأولىٰ.

٧٣. العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفىٰ: ١٣٩٣هـ)، إشراف: د. بكر بن عبدالله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.

٧٤. العقوبات، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفىٰ: ٢٨١هـ)، المتوفىٰ ٢٨١هـ، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم، بيروت -لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٧٥. العين، المنسوب لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفىٰ: ١٧٠هـ)، المحقق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٧٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة -بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف علىٰ طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

٧٧. فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للعراقي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفىٰ: ٩٠٢هـ)، المحقق: علي حسين علي، الناشر: مكتبة السنة -مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٧٨. فضائل الصحابة، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، الناشر: مؤسسة الرسالة -بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٧٩. فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى -مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦.

٨٠. قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، أبو محمد الطيب بن عبدالله بن أحمد بن علي بامخرمة، الهِجراني الحضرمي الشافعي (٨٧٠-٩٤٧هـ)، عُني به: بو جمعة مكري/ خالد زواري، الناشر: دار المنهاج -جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م.

٨١. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبو محمد عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي (المتوفى: ٦٦٠هـ)، راجعه وعلق عليه: طه عبدالرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية -القاهرة، (وصورتها دور عدة مثل: دار الكتب العلمية -بيروت، ودار أم القرى -القاهرة)، طبعة: جديدة مضبوطة منقحة، ١٤١٤هـ-١٩٩١م.

٨٢. لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م.

٨٣. المجتبىٰ من السنن= السنن الصغرىٰ للنسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفىٰ: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية -حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٨٤. مجمل اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفىٰ: ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة -بيروت، الطبعة الثانية -١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٨٥. مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ.

٨٦. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفىٰ: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي -بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٨٧. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفىٰ: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط -عادل مرشد، وآخرون، إشراف: أ. د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٨٨. مصنف عبد الرزاق الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (١٢٦-٢١١هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، صدر عن المكتب الإسلامي ببيروت، سنة ١٤٠٣هـ.

٨٩. المطلع علىٰ ألفاظ المقنع، محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلي، أبو عبد الله، شمس الدين (المتوفىٰ: ٧٠٩هـ)، المحقق: محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب، الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.

٩٠. معجم الأدباء= إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي (المتوفىٰ: ٦٢٦هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٩١. مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفىٰ: ١٣٩٣هـ)، المحقق: محمد الحبيب بن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، عام النشر: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٩٢. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفىٰ: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٩٣. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج= شرح النووي علىٰ مسلم، أبو زكريا محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي (المتوفىٰ: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٩٤. الموافقات، إبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفىٰ: ٧٩٠هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولىٰ ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٩٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٩٦. النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (المتوفى: ٣٨٤هـ)، المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م.



«مشارقُ الآي» دعوةٌ للأمة بمجموعها للعيش مع كتاب ربها، والنهل من معينه، والتدبر في معانيه؛ فهو الذي يُطلعهم على معالم الخير والشر، ويجعلُ في أيديهم مفاتيح كنوز السعادة، ويُثبِّت الإيمان في قلوبهم، ويعطيهم قوةً وانشراحًا، وبهجةً وسرورًا.

«مشارقُ الآي» مقالات متنوعة في النفس والكون، والفكرِ والحياة، مرصوفة بعباراتِ الأولياء، والسادةِ النجباء، اجتمعت تُذكِّرُ وتقول: لا ظلام مع نور الوحي!

هي دعوةٌ للعبد حتى يدخل في عالم الحياة الحقيقي، ويعيش مع مشارق آي الذكر الحكيم في ظلال أقوال السلف الكرام؛ كي تكون نبراسَ حياة ومشروع عمل وحياة أمة.



